محمود قاسم

الحياة مفرد مؤنث

رواية

مركز الحضارة العربية

إهـــــــداء ٢٠٠٨ :
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

الحياة مفرد مؤنث

رواية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس : 3448368 (00202)
E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

محمود قاسم

الحياة مفرد مؤنث

رواية



الكتاب : الحياة مفرد مؤنث
رواية

الكاتب : محمـود قاسـم

الناشر : مركز الحضـارة العربيـة

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٧٧٤٨
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-291-414-X

الغلاف
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : أحمـد أميـن
تصحيح : زكـريا منتصر

اللهم اجعلنا نقع فى الحب مرة كل يوم . .

مادام يدفعنا إلى أن نصوغ الكلمات الصادقة المتدفقة ،

و يجسد فينا كافة المشاعر البريئة المتوقدة .

هل قررت فجأة أن أعود إلى صباي؟

أم أن أطـرد شبح المـرأة الـتى أحببـتها ، فأنكرت كل مافعلناه معًا فوق أجنحة المدن والفراش؟

علمتنا الـتجارب أن لكـل رحـلة مذاقها ، وأننا نلتقى دومًا بأشخاص جـدد فـوق الأرصـفة ، وداخـل البـنايات، وبـين ركام الأسواق، كثير منهم تمسحهم الثوانى، والفيمتوفيمتو ثانية، وآخرون يتسللون ببطء شديد داخل أوصـالنا، لا يمكـن محوهـم من الذاكرة ، لكنهم ، على كل حال ، يتسربون من مخيلتنا. ومن أجل الإمساك الحقيقى بهم ، فلابد أن نحولهم إلى صفحات مكتوبة فى رواية يقرؤها الناس بعد أن تبتعد المسافات والأزمنة.

كـان يجـب أن أعـود إلى هنا .. لأطرد شبح المرأة الذى ظل يطاردنى عامًا بأكملـه، فـى مـنامى، وذاكرتى ، وأوراقى ، وشرائط الغناء التى سجلتها فى هذه المدينة ، ووثائقىالتى تناثرت من حولى فى كل مكان.

اكتشـفت والسـيارة تفتـتنى، فـى أنحـاء المديـنة ، أنهـا مليئة بالكثير من النسـاء اللائـى يشبهنها ، وكان السؤال الملح دومًا : هل يمكن التواصل مع واحدة منهن؟

وصـلنى الـرد مباشـرة من صديقى الذى استقبلنى فى المطار، وصدمنى وأنـا أنظـر إلى مكـان وقفـت عنده" ميليسا " قبل عام، عندما حانت لحظة الوداع :

- لست عمر الشريف . هل تفهم؟

وفهمت، فلست الفتى الذى تتهافت الأخريات عليه، لا أطمع سوى فى أن تكـون لى صحبة من طراز" مارينا" التى وعدتنى أن تأتى من موسكو لنقضى بضعة أيام معًا فى المدينة التى تقع فى منتصف المسافة بين وطنينا.

لكن هل ستأتى مارينا حقًا؟

أكـدت أنهـا سوف تأتى ، وأن بعض المتاعب الخاصة بالفيزا قد تؤخر وصولها بعض الوقت .

هل يمكن لـ "مارينا" حين تأتى أن تمسح كل شريط الذكريات التى تركتها "ميليسا"، مثلما نمسح الأغانى الجميلة من فوق شريط رفيع سجلنا عليه أجمل الأغنيات التى شكلت وجداننا؟

لست فى حاجة إلى إجابة ، فشعورى بأننى فى المدينة هو رد شديدة البلاغة، والتواجد فى واقع فردوسى أبهى ملايين المرات من خيال ساحر.

السيارة تتحرك ، والعينان تتكلمان وتلتقطان كل مايمكن أن يبهر المشاعر ، رغم الكلمات التقليدية السخيفة عن أحوال الوطن . وسكانه، والمسئولين عن إدارته .

يجب أن نأتى إلى هنا، من أجل أن نعيش فى وطن آخر لعدة أسابيع حتى لو طاردتنا فيه جلودنا ، وأسماؤنا، وذكرياتنا ، وأهلنا الذين يجب أن نطمئن عليهم عبر الهاتف بين وقت وآخر .

ترى أين يمكن أن ألتقى بامرأة أمسح بها شريط المشاعر الملتهبة تجاه" ميليسا" ،التى لعلها الآن فى مكان قريب أو بعيد، فى حالة علم وصول مارينا ؟

هل نقابلها فى الجامعة التى سألتحق صباح الغد بالفصل الدراسى الصيفى بها لعدة أسابيع؟ أم أنها تنتظرنى الآن فى الفندق الصغير الذى يطل على أكبر ميادين المدينة؟ أم ستكون واحدة من اللائى يمارسن القبلات السريعة فى عربات الترام، أو الشوارع المتشابكة، أم أعود مرة أخرى إلى بيت الأدباء الذى كان شاهدًا على ما ربطنى بكل من المرأتين معًا ؟

يا إلهى ، ماأقسى التساؤل أمام حالة مؤكدة ، من أننى عدت إلى هنا ، فالمدينة نفسها امرأة بالغة السحر لو قارنتها بالعجوز الشمطاء التى أسكن فيها يشرخها الزحام والفقر، والعواطف الجافة المرتكزة على لعبة المصالح .

يجب أن أبحث عن امرأة .

وإلا أكف عن المحاولة .

الأنثى الأولى

ترى هل ستكون المرأة التى أبحث عنها هى واحدة من هؤلاء اللائى يملأن ذلك المدرج الضخم ؟

أكثر من خمسمائة امرأة أغلبهن من الحسناوات القادمات من أنحاء متعددة من العالم ، عرفت فيما بعد أنهن يمثلن أكثر من خمسة وستين جنسية.

جاء الجميع لدراسة اللغة الفرنسية ، لكن لا أعتقد أنهن جميعا أتين إلى هنا بحثًا عن تجربة حب.

رأيتها فى بهو الجامعة فى الثامنة صباحًا. بدت فى نظرى أجمل من "ميليسا". سألتنى : هل أنت قادم للامتحان؟

هززت رأسى، وبعد قليل كنا نحتسى فنجان شاى ساخن ، قالت : الآن اقترب موعد الامتحان.

وخرجنا إلى المبنى التعليمى للجامعة ، قالت برقة لم آلفها فى حياتى، وبصوت أقرب إلى الهمس : اسمى" لينا " ، سويدية .

وسرعان ما تمثل فى مخيلتى كل ماسمعته عن التحرر العاطفى فى السويد، وأن أسهل شيء هناك أن تسلم المرأة جسدها لرجل، وأن تتنصل منه . سألتها السؤال الذى يحيرنى :

- هل صحيح أن نسبة الانتحار فى السويد هى الأعلى فى العالم؟

ببساطة هزت رأسها، بالإيجاب ، وكأن لا إجابة إلا هزة الرأس، ثم بدأت تشرح السبب :

- إنه المناخ .. نحن نعيش فى جو أغلبه ليل .. إنها الكآبة التى لا يمكننا التحرر منها مهما فعلنا .

جلست إلى جواري ، ونحن نؤدى الامتحان. وقف عميد الكلية يشرف بنفسه على طرح الأسئلة كى يجيب عليها أكثر من خمسمائة متقدم للدراسة الصيفية، لتحديد مستوى كل منا قبل توزيعنا على الفصول الدراسية. بدت ماهرة فى الإجابة. ولم يَحْتَجْ أحدنا إلى معرفة شيء من جاره، فالطريقة التى طرح بها العميد الأسئلة لم تتح لأحدنا مجرد التفكير أن يستعين بزميله، حتى لا يقع فى اقل قدر من الخطأ .

عقب انتهاء الامتحان تناثر الجميع فى المدرج الذى امتلأ ببهجة وصوصوة متشابكة اللغات ، بدأ كل منا فى التخلى عن لغته لبعض الوقت من أجل أن يتوحد مع الآخرين .

تبدو اللحظات الأولى لنا فى أى مكان بمثابة استكشاف غير محدد المعالم، وليس من السهل أن نتخذ قرارًا أو أن نحدد موقفًا ، وليس فى إمكان شخص مثلى أن يختار واحدة منهن ، فتسرع نحوي، وتربط مصيرها بحياتى القادمة، مثلما حدث بين سوزى وأحمد الذى جاء إلى قرية صغيرة قبل عدة سنوات ليعمل فيها فى أجهزة التبريد، فصار زوجًا وأبًا لطفلين سمراوين مثله، ترك أحدهما فى القاهرة بالأمس عقب زيارته السنوية لأهله مصطحبًا امرأة جميلة . قالت لى بالأمس حين جلسنا متجاورين فى الطائرة :

– اعتنقت الإسلام عن قناعة، وأيضًا من أجل زوجي. قالت لى أمى أنت حرة فيما اخترتِ، أنا مسلمة، ولست فى حاجة إلى حجاب أخفى به شعرى فالناس لا يصون إلى الآخرين فى قريتنا .

كان علىّ أن أسمعه يتحدث عن رحلته طويلاً عندما جلسنا فى مقاعد الطائرة الخلفية ليتمكن من التدخين، تاركًا زوجته مع ابنها الرضيع تنشغل به لكنها كانت تأتى بين ساعة وأخرى لتسأل عن زوجها الذى خرّ فى النوم مرات عديدة وهو يحكى لى عن رحلته الطويلة بين القاهرة وقرية سوزى إلى أن التقاها عقب فشله فى الحصول على وظيفة عامل تبريد فى القاهرة . لم تكن أمامه سوى مغامرة السفر إلى الخارج .

ترى هل توجد من بين هؤلاء الفتيات القادمات من كل أنحاء الدنيا من

يمكنها أن تكرر نفس التجربة؟

معى؟

لا أعتقد .

فـى صباح اليـوم الـتالى كـان كـل همى أن أبحث عن اسم "لينا" فى الفصل الذى التحقت به ويضم سبعة عشر طالبًا .

فى الفصل الذى يقع فى الدور الثانى جلست أنتظرها . لكنها تأخرت فـى الحضـور، وجدتـنى أبتسم لزميلتى الشقراء التى جلست إلى جوارى . ردت حين سألتها عن موطنها :

- أوكرانيا ..

لم يهمـنى أن أعـرف المـزيد عـن الوطـن بعـد أن عـرفت أن اسمهـا " كاترين" .

اكتشـفت والفصـل يمتـلئ رويـدًا بهـن أن أمامى ثلاثة أسابيع لأعضد علاقـتى بفـتيات جئن مـن أوطـان عديدة ، أغلبهن أوربيات، ولهن نضارة تجعلـنى ألـوح رأسـى لأقـارن وأخـتار مـن تكـون الـبديل عـن المرأة التى هجرتنى بعد فراقنا فى العام الماضى عقب وصولها إلى باريس وردت بمنتهى القسوة فى خطابها :

"معـذرة أنـت رجـل شـرقى.. وأنا أريد رجلاً غربيًا مثل ذلك الكندى الذى قابلته أخيرًا".

هـذا هـو الـدرس الأول الذى يجب أن نمارسه مع أية واحدة من هؤلاء، قـبل أن نتعـلم الـلغة الـتى جمعنا الفصل من أجلها لثلاثة أسابيع : "حين تفـترق عـن المـراة الـتى صـاحبتها.. امسـح اسمها كاملاً من قاموسك، فهى ستكون لرجل آخر تلقاه فى أقرب مكان" .

لكـن، هل هذا صحيح؟ وبالطائرة كانت هناك سوزى تترك مكانها بين وقت وآخر وتقول ملتاعة :" أين زوجى؟ " .

أسلمت من أجله، وتركت أسرتها، كى تعيش إلى جواره بالغة السعادة، ترى هل هى خائفة أن يتركها فى أية لحظة، مثـل طبيعـة العشـاق فـى هـذه

البلاد؟

لِمَ ننظر إلى الوراء، ومن حولى تجلس أكثر من عشر فتيات جئن من أنحاء متفرقة من الكون كما رحن يقدمن أنفسهن إلى "موريل" التى بدت فى مثل أعمارهن :

"اسمى موريل ريبو. أحمل جنسيتين أوربيتين تبعًا لأبى وأمى، أنا من وسط فرنسا، ولا أقيم هنا . أعمل فى الجامعة، وأحاول الحصول على الدكتوراه.

قالت "كاترين "تقدم نفسها :

– أسكن فى المدينة، وأعمل بها .. أسعى لتحسين لغتى من أجل البقاء مدة طويلة أعمل هنا .

وراحت "موريل" تستمع إلى طلبتها الجدد وكل منهم يقدم نفسه إلى زملائه الجدد. تتحرك فى خفة ملحوظة ، وتضحك . كلما دخلت طالبة متأخرة نعاود تقديم أنفسنا، وتكرر "كاترين" التى تجلس فى القمطر الأول أنها من أوكرانيا ، وأنها تقيم فى المدينة حيث تعمل فى إحدى شركات إنتاج الأفلام التسجيلية .

عندما قرع جرس انتهاء الساعة الأولى من اليوم الأول، رأيت "لينا" تغادر مكانها وفى يدها تفاحة ، مما شجعنى أن أخرج تفاحتى لألتهمها وسط الممر الطويل الذى يربط بين الفصول الممتلئة بالدارسين . أغلبهم بنات صغيرات يلوحن الرأس كالزنبرك حتى لو وقفت إلى جوار فتاة من طراز "لينا" أردد لها :

– كنت أشعر أننا سنكون فى نفس الفصل .

ليست هناك موضوعات يمكن خلقها بسهولة مع فتاة عرفت أنها سويدية ، وأنها تقيم مع أسرتها عند الحدود القريبة من نهاية المدينة، وتتمنى لو عاشت وعملت هنا، حيث الشمس أكثر إشراقًا، والطبيعة أكثر تنوعًا .

لمحتها وأنا أتحدث إلى "لينا"، تبدو كغصن البان الذى يحفظ معناه دون

أن ندقق فيه . تبدو جميلة ، ووحيلة ، وتقضم ثمرتها وهى جالسة إلى جوار نافلة الفصل، إنها تحتاج إلى صحبة بكل تأكيد . لذا أشرت إليها بالخوخة الداكنة الحمرة عندما انتهت الساعة الثانية من دروس اليوم الأول :

- تفضلى .
- شكرًا .
- هل من السهل العثور على عمل هنا ؟
- بالطبع لا .
- هل تتعلمين الفرنسية لهذا السبب ؟
- نعم .

ولم أجد أسئلة جديدة ، قلت :

- هل ستذهبين فى الرحلة النهرية ؟
- لا .. قمت بها من قبل ؟

أدركت أنها تدرس من أجل أن تمد إقامتها فى المدينة لأطول وقت ممكن، كنت قد دفعت اشتراك رحلة بحرية تأخذنا إلى مدينة صغيرة يقع بها قصر المدام دى ستايل ، نذهب إليها بالقطار على أن نعود بالباخرة النهرية إلى المدينة .

أحاول مجددًا أن أخترق الطريق إليها :

- هل ستأتين فى المساء لزيارة المدينة القديمة ؟
- رأيتها مرارًا .

لم تخذلنى هذه اللاآت المتكررة ، واندفعت نحوها وهى تتحرك فى حديقة الجامعة عقب انتهاء الساعة الثالثة من دروس اليوم الأول الذى قررت ألا ينتهى إلا وأكون قد نلت صحبتى فى المدينة، تجلس فوق مقعد بالحديقة، قامت فجأة من مكانها، وسارت فى اتجاه باب الخروج ، ثم استدارت وعادت بنفس السرعة إلى مكانها ، إنها شديدة القلق ووحيلة، وأنا شديد الحرص على الوقت، وأريد انتهازه فى صحبتها ، رأتنى أمامها أسألها :

- هل تغلق المحلات أبوابها عند منتصف النهار ؟
ردت : المحلات تفتح طيلة اليوم ، حتى السابعة مسله .
- هل أدعوك إلى الغداء معى ؟
- شكرًا .
كررت سؤالي : هل ستأتين لزيارة المدينة القديمة فى الخامسة .
هزت رأسها من جديد. وغادرت مقعدها إلى باب الحديقة وأنا أشعر بخيبة الصياد الذى رفضت السمكة أن تقترب من صنارته، لكننى لم أفقد الأمل فى الحصول على أسماك أخرى والنهار طويل به اتساع البحر، فالصيادون كثيرًا ما يشعرون بجفاف المحيط حين تخلو شباكهم من أسماك تنجذب إلى الطعم المقدم لها .
فى الخامسة كنت هناك. مكان قريب من الذى خرجت منه "كاترين" مدعية أن عليها الذهاب إلى عملها فى الثانية ظهرًا ، لذا لم تأت إلى المكان الذى تجمع فيه قرابة مائة طالب التفوا حول معطف المدرس الذى اختبأ فيه، وهو يشرح لنا تاريخ المدينة عبر جدرانها وتماثيلها القديمة، وحديقتها المحيطة بمبنى الجامعة المليئة بالمارة والتماثيل والمقاعد التى خاب أملى عند واحد منها فى أن تقبل" كاترين" تناول الغداء معى .
لكن هناك الكثير منهن هناك ، يحطن المدرس ، ويبدون متنبهات لما يقوله ، وهو يجذبهن معه إلى أطراف المدينة القديمة، ويدخل بنا إلى أنفاق صغيرة مغلقة بالأشجار المتنوعة الأحجام والأشكال والألوان كأنها ذات مصير مشترك مع البنايات الحجرية التى قاومت المطر الغزير قرونًا طويلة، بأن أنبتت على أسطحها أنواعًا دقيقة من المزروعات الخضراء مما كسا المكان لونا منسديًا يعبر عن التاريخ الذى عاشته .
وجدت قدمى تنجران وراء المدرس وأنا أستمتع باللغة رغم جفاف كلماته، تجسدت مشاعرى أننى لست من الأشخاص الذين يحنون إلى الماضى من خلال آثارالأقدمين بقدر عشقى للبنايات الحديثة ، لذا لم يجذبنى عمود السوارى لزيارته رغم أننى تربيت عند قاعدته، ولم أقم برحلة إلى

الهرم رغم أنني كثيرًا ما لمحت مهابته والسيارات تنقلني على مسافة قريبة منه .

أليست واحدة من هؤلاء الحسناوات أكثر حياة من الهرم لو ملأت عليك وجودك ، خاصة في مثل هذه المدينة، لكن النسء لا "يبصصن" إليك على طريقة البص المتبادل بين الناس في مدينتك. فمهما حملقت فيهن فإن أعينهن تنظر إلى آفاق أخرى غيرك .

وانتهت الرحلة الدراسية، وتناثر أكثر من مائة طالبة وطالب، باعتبار أن أغلبهن من الحسناوات، بعيدًا عن المدينة القديمة . وذهبت إحداهن إلى محل فخم لبيع الأزياء الفخمة قريب من البحيرة ، وقررت أن أدخل إليها وأعرفها أنني زميلها في الدراسات الصيفية بالجامعة وأن أدعوها إلى العشاء .

أنا سخيف وساذج . أليس كذلك ؟

كما أنني عاجز تمامًا أن أفعل ذلك .

وكان علي أن أغبط عامل أجهزة التبريد الأسمر الذي جاء من القاهرة فيما ناله عندما جاء إلى هنا : امرأة تركت عقيدتها من أجله ، ومسكنًا ، وتأمينات ، وولدين لهما لون بشرته .

وأخذتني المدينة ، وحيدًا تشعرني عيناي بالحرمان الشديد ، فهذه المدينة كائن مؤنث ، ومن الصعب ولوجه ، ليست النساء فقط، بل الحوانيت المليئة ببضائع ثمينة ، والمطاعم الملتهبة فواتيرها، وذلك رغم العشاق الذين يملئون أركانها يقتطفون القبلات دون رقيب ، ومن السخف أن تنظر إليهم أكثر من مرة ، ليس الشباب والفتيات فقط ، بل هذان الشابان اللذان يتبادلان قبلات الشفاه بحرارة اشد مما يفعل العاشقان - ولد وبنت - اللذان يجاورانهما .

ترى هل يمكن لـ "كاترين" أن تدخل حياتي بنفس القوة التي فعلتها "ميليسا" قبل عام ، وذهبت إلى فراشها وأخذتني إلى وجودها، فأبكتني مع عالمها المأساوي، وأسعدتني وهي تداعبني، وآلمتني منتحية ونحن نفترق ،

وبكت في هاتفي بعد يومين من المسافات الشاسعة التي فصل السفر بيننا ، ثم ظلت تراسلني وتخابرني حتى صدمتني بأنها قابلت رجلاً من كندا قالت إنها هامت به عشقًا ؟

هل يمكن للمرء أن يبدأ من جديد فيمر بنفس الخطوات ، كأنه تلميذ يقوم بحل نفس المسألة الرياضة السهلة المعقدة ؟

المرء الذي يتخلى عن العشق، عليه أن يرمي حياته في مقبرة باردة، و"كاترين" تستحق أن يخرج العاشق من أجلها إلى آتون حارق ، تلسعه نيرانه ، ويكتوى من صدودها ، وعناقها ثم فراقها. ربما ليبحث عن أنثى مختلفة في وقت آخر باعتبار أن لكل مؤنث مذاقًا مغايرًا .

سوف أكرر المحاولة .

لقد جاءت المحاولة من طرف آخر، قالت موريل :

- سوف نكون ثنائيات ،الطرف الأول منها يمكنه أن يتكلم عن وطن الآخر كأنه وطنه .

وكانت فرصة اليوم الثاني في الجامعة أن أقترب من "كاترين"، وأن أخبرها بأشياء كثيرة عن رغباتي ، وأن أسمع منها كيف تعيش بين مدينتها التي جاءت منها في أوكرانيا ، وبين هذه المدينة التي جمعتنا سويًا .

ورحت أتكلم بلسان "كاترين" ساخرًا من "فعل" الأنثى الذي أستخدمه نيابة عنها ، والجميع يسمعني كأنني أوكرانية تقول عن نفسها :

"اسمي كاترين زامكولوفسكي، أسكن بالعاصمة، جاءت أسرتي من مقاطعة، ظلت بلادي تحت حكم الاتحاد السوفيتي سابقًا لعدة سنوات، ثم تحول وطني إلى بلد مستقل بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، عمري ثمانية وعشرون عامًا، أعمل في هذه المدينة منذ عامين . أعمل في مؤسسة لإنتاج الأفلام التسجيلية، شاركت في الإعداد لفيلم عن أوكرانيا ، هنا في المدينة ، و..".

اكتشفت أن المعلومات التي أعطتني إياها أما أنها تطايرت ، أو أنها كانت من الندرة أن جعلتني أنثى، وأنا أتكلم، بينما تفجر المكان بالضحك

لأسلوبى فى صيغ كلماتى بالتأنيث، وفى خلال المسافة الزمنية بين الدرسين أخبرتها :

– أنا أيضًا أعشق السينما، لكننى لا أعرف شيئًا عن السينما فى بلادكم ، كل ما أعرفه مرتبط بالسينما السوفيتية .

لم تمنحنى الفرصة أن أحكى لها عما قاله لى مخرج من إحدى الدول المجاورة لفنلندا التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى، وصارت السينما فيها تتسم بنفس فقر البلد المستقل حديثًا، "نفضل أن نكون فقراء عن البقاء فى إطار الاتحاد السوفييتى" .

خرجت إلى الممر لتلتهم التفاحة التى تحتفظ بها فى حقيبتها . لم أشأ أن أدعوها من جديد إلى تناول الغداء، لكننى كررت :

– هل تأتين إلى النزهة البحرية ؟

بكل لباقة كررت، من جديد : عندى عمل بعد الثانية .

وفقدت الفرصة الأخيرة فى أن تكون معى ، أو معنا ، إنها ترفض برقة شديدة دون أن تشعرنى بأننى غير مقبول . خرجت بعد الحصة الثانية إلى السوق القديم للمدينة الذى يقع على مسافة قريبة من الجامعة ويطل مباشرة على الميدان الذى تقع فيه شرفة غرفتى بالفندق الصغير الذى يعنى اسمه "لا تنسنى" .

هذا هو السوق الحقيقى ، إنه من الاتساع أن يقوم المرء بعمل دورة حوله فى ساعة كاملة ، يأتى إليه الباعة والمشترون مرتين فى الأسبوع ، من السابعة صباحًا حتى السادسة مساء، تستطيع أن تقابل فيه البشر من كل الأجناس التى تملأ المدينة،جاءوا لبيع، أو شراء ،ما يمكن للمرء أن يتصوره ويبالغ بالغة البخس .

إنه سوق للملابس والنسل، والمجلات، وأكثر شيء يمكنه أن يوجد فى الأرفف وعلى الأرض هو الكتب والملابس القديمة، وأحيانا قد يفوز المرء، بأرخص ما يكون ، بصور عارية لشهيرات نجمات السينما .

وهناك كانت من تنتظرنى :

- من فضلك .

التفت إليها ، يا إلهي ، إنها امرأة بنصف نسله الأرض اللائى يعشن الآن على قيد الحياة ، والحسناوت اللائى حفظ لنا التاريخ أسماءهن وأوصافهن. ترتدى بنطلونًا أسود ، وبلوزة تؤكد لك أنك محظوظ حين تسالك مثل هذه المشورة .

راحت تشير إلى كتاب ضخم عن عقيلة دينية انتشرت فى القرن الثامن عشر، وقالت :

- هل تعتقد أن هذا كتاب قديم حقيقة ؟

رحت أتصفح الكتاب بكل دقة ، واختلست نظرة إليها وقلت : هل أنت فرنسية؟

بكل غنج غير مقصود منه أن تشد انتباهى قالت : أنا أمريكية .

وتفتحت مسامى الشهوانية، وأحسست أن فولت الجاذبية المشع منها يتفوق على كافة قدرات شرقى مثلى ينظر إلى كل شيء فى المدينة باعتباره "مؤنثًا" ، قلت :

- من الواضح أنه كتاب ثمين .

قالت لي : اسأل البائع عن سعره .

سألتها : هل تقيمين فى المدينة؟

ردت : سوف أطير غدًا إلى نيويورك اسأله .

نظرت إلى بائع الكتب الذى بدا كأنه لا يفهم اللغة التى تتكلم بها، يبدو كأنه أتى من الجبل الأسود ، أو أرمينيا، مثل أغلب الباعة فى السوق ، قلت لها : هل تودين شراءه؟

إنها المرأة التى تنتظرنى قادمًا من مدينتى، وتعرف أن أمثالى لا بد مفتونون بها ، أشرت إلى شرفتى فى الفندق ، ولم أستطع أن أطلب منها أن تأتى معي إلى هناك سألتها : هل أنت واثقة أنك سترحلين غدا ؟.

نطق البائع بالسعر الزهيد الذى منحه لكتاب بدت الفاتنة كأنها تتشكك فى قيمته الحقيقية ، أو فى أنه مطبوع فى القرن الثامن عشر ،

رمشت بعينيها وقالت :

- هل تعتقد أنه كتاب حقيقى ؟

انتشرت أفكارى فى أماكن متعددة ، فى أن أصحبها معى إلى الغداء ثم نصعد إلى الفندق، وأن أتخلى عن فكرة الرحيل إلى قصر مدام دى ستايل ، الرحلة التى نظمتها الجامعة. وتردد فى أذنى "لست عمر الشريف" .

وكالجبناء انسحبت من واحدة من أشد المعارك التى يمكنها أن تكون علامة فى حياة المرء، فلا شك أن صحبة مثل هذه القنبلة المؤنثة سوف يسفر عن ضحايا ،لا يمكن للمرء أن يتكهن بهم .

ودفعتنى قدماى الجبانتان إلى الفندق أعد نفسى للذهاب إلى قصر مدام دى ستايل التى أثارت بفتنتها رجال عصرها فكتبوا الشعر والقصص ، ورقدوا فى مخدعها يتلذذون بما يلمسون ويكتبون .

وانطلقت إلى محطة القطار التى انتظرتنى فيها "ميليسا" بقامتها الطويلة كأنها لم تغادر المحطة منذ علم حين بكت بين ذراعى قبل أن يتحرك بها القطار ، إنها نفس العربات الحمراء تقف عند الرصيف أربعة ، وقد تأهب للرحيل ، دفعت بالكاميرا إلى زميلى"ايفان" ، من التشيك ، ووقفت قريبًا من الباب الذى صعدت منه "ميليسا" واستحضرتها تبكى، وأنا أناشدها التماسك، (ملحوظة : عندما تم طبع الصورة ظهرت وحدى إلى جوار باب القطار دون أن يكون هناك أشخاص آخرون من الواقع ، أو الذكريات المتسربة) .

يبدو أننى نسيت هذا العالم منذ فترة طويلة ، تأخذنا رحلات الشباب وزقزقاتهم ، يثيرون الحمية فى محطات القطار والعربات، حتى وإن تم ذلك فى مدينة أوربية تفخر برونق قطاراتها، وسرعاتها وهدوئها، لكن المنظر الساحر للخضرة التى تلف القطار جلب لى حنينًا جديدًا إلى الدروب التى اخترقناها كثيرًا، أنا و"ميليسا"، تسرقنا الكلمات، والأودية، وحقول عباد الشمس الذهبية .

لكن ترى لماذا تلتهمنى الذكريات ، ومن حولى كل هذه الزمرة من

الحسناوات ، فى أعمار صغيرة متقاربة، حتى المشرفات على الرحلة يبدون كأنهن فى العشرينيات من العمر ؟

بدا الشريط الذى يمثله أطول من القطار نفسه عندما نزل الجميع فى المحطة التى يقع فيها قصر مدام دى ستايل ، التى تولى أبوها وظيفة وزير المالية فى حكومة الملك لويس السادس عشر .

ترى ماذا لوجاءت "كاترين" ؟

فالعالم هنا يعج بالأنوثة، ليس بالطبع هؤلاء المزركشات فى ما يرتدين ، بل أيضًا تلك المرأة التاريخية التى ارتبطت برجال عصرها ، وذلك السرير الفخم الذى ينطق فى كل زيارة بما شهده قبل مائتى عام من النشوة الممزوجة بالفكر، واللذة والثراء، والبقاء .

قالت مرشدة المنزل :

- هذا القصر وهبته أسرة "دى ستايل" والورثة ليصبح مزارًا للعشاق .

أغمضت عينى وشاهدتها فوق فراش أكثر فخامة جمعنا فى الواقع معًا ، عليها أن تأتى لتلحق بى فى المدينة لنستكمل معًا قصتنا التى لم تنته بعد ، وعدتنى "مارينا" التى لا تختلف عن مدام دى ستايل كثيرًا أن تكون إلى جوارى بعد أيام ، إنهما تقريبًا نفس المرأة ، الصور الناطقة بذلك تملأ الحوائط . وما بدر من " مارينا" يوقظ اليقين بأن هناك بعض النسوة يتناسخن فى المصائر والحياة، ورأيت مضاجعتنا تحدث فوق فراش مدام دى ستايل الذى يقل فخامة وطيبًا عما جمعنى بمارينا ، عاشقة الشعر ، وبوشكين، والتى لم تنقطع مراسلاتنا أو كلمات الهاتف السريعة الدافئة طيلة العام ، فأرسلت لى بصورتها وهى تتجول فى بيونس إيرس .

يا إلهى ، لماذا كانت "ميليسا" هى البؤرة، وصارت مارينا مجرد امرأة منحتنى فراشها الأكثر فخامة فى كل الوجود؟

لفت أنظارى الجمال الحى المتدفق، ورحت أهرب من الذكريات التى جئت هنا لأمسحها ، وليس لإعادة إحيائها مجددًا . لذا كنت أول الخارجين من القصر ، وتوغلت فى الحديقة الطويلة التى تقع مباشرة فى مواجهة

القصر، وعندما خرجت رأيت طابورًا طويلاً يتحرك ناحية المدينة الصغيرة .

وسط كل هذه الجموع لا بد أن تجذبك ملامح بعينها فتختارها لصحبتك ، حتى وإن لم يتم التعارف فيما بينكما ، لكن هل من السهل المفارقة بين كل هؤلاء الإناث اللائى يؤكدن أن هذه المدن مؤنثة بكل ما تضمه من معالم ؛ حسناواتها القادمات إليها ، وبحيرتها الممتدة إلى سدرة المنتهى، ومدنها، وقراها بما تثيره من نشوة التعارف عليها. حتى قصورها المذكرة تحمل أسماء مؤنثة فى المقام الأول .

وفى المقهى "المؤنثة"، رأيتها ، مددت لها يدى بأيقونة فرعونية؛ لزوم اصطياد البنات وقلت بسذاجتى :

- هذه تجلب الحظ .

أمسكت الجعرانة الصغيرة ، وراحت تلفها حول رقبتها وصرخت :

- يا إلهى .. كم أعبد هذا!!

التففن حولها ، أكثر من ستة فتيات من جنسيات مختلفة . صاحت صاحبة الملامح الأسيوية :

- هذا جعران .

فخرًا بحضارتى قلت : يجلب الحظ .

عرفت أن التى لفت الجعران تسمى أنجلينا ، قالت عندما جلسنا سويًا حول مائدة نطلب العديد من المشروبات :

- سوف آخذها معى إلى بلادى .. أمريكا .

قالت عندما سألتها عن هويتها :

- نعم أنا من إيطاليا .. لكننى أسكن الولايات المتحدة .

تبدو أقرب إلى الغجريات فى ملامحهن فلا تستطيع أن تحدد إلى أى وطن ينتمين. مثل "نادين" الأسيوية الملامح التى لا يمكن أن تحدد هويتها الحالية كهولندية . و"ماريان "التى أنكرت أى شبه بين ملامحها وبين جولييت بينوش .

ملأن المقهى بصخبهن الذى جاءت به كل منهن من بلادها ، وتناثرت مفردات لاتينية عديدة من الأوطان اللائى جئن منها . واكتشفت فجأة أننى الذكر الوحيد الذى تحيط به أكثر من عشرة حسناوات على المائدة "رزقك واسع يا ولدى" . وكرهت الساعة وهى تقترب من الخامسة موعد قدوم السفينة النهرية لتعود بنا إلى المدينة . انطلقت أنجلينا تسبقهن وقد لفت شالها الأحمر حول الجينز الذى حسم فوزها الساحق فى مسابقة لم تتم كملكة جمال الحسناوات اللائى جئن للدراسة الصيفية هذا العلم. بينما راحت عينا "ماريان" تضيقان كلما ضحكت بدون داع ، وكأنها على سجيتها .

ترى هل يتسم المرء بتسرع واضح وهو يطلق مثل هذه الأحكام النهائية، وأن أنجلينا هى الأجمل وسط هذا الطابور الممتد لمسافة طويلة آتيًا من منتصف القرية الصغيرة التى كانت تقيم فيها مدام دى ستايل ، نحو رصيف البحيرة حيث رست مركب النهر الذى عليه أن يعود بنا إلى المدينة .

تدافعنا إلى المركب فى نظام دقيق ، ووجدت نفسى أخرج إلى مقدمة المركب أتطلع إلى كل ماهو مؤنث من حولى ، البحيرة ، الأشجار ، الخضرة، الفتاة المغربية التى تقيم فى لندن وقد جلست تستمع إلى زميلها الذى يبدو أنها تعرفت عليه قبل أسبوعين فلم ينتبه إلى أننى أفهم كل مايقوله عن حلمه بالبقاء فى المدينة ملحقًا بأخيه ، وأنه يمكن أن يتزوج ممن يحبها ، وأن من الأفضل لها أن تاتى إلى هنا للعيش فالمدينة أجمل بكثير من لندن .

ولأول مرة أكتشف أن الزواج مذكر، وقررت أن أركز انتباهى فى المؤنثات، وشعرت أننى أضاجع الطبيعة وأصل معها إلى الذروة، وألهث بقوة وأنا أكتشف أن الطبيعة ، فى لغات عديدة ، أيضًا مؤنث .

مثل المرأة تمامًا .

الأنثى الثانية

قلت لها وهى تقف إلى جوار "ريكاردو" وهو يعزف على الناى:

- على فكرة .. أنت ..

أشارت بأصبعها الملامس لفمها بأن اسكت، لأن المرء يجب ألا يسمع شيئًا مصاحبًا لعزف "ريكاردو" القادم من بنما والذى يجلس فوق مقعد البيانو فى أوقات الراحة بين الدروس، وددت أن أبلغها بإعجابى الشديد باتساع ثقافتها، لكنها لم تستعد لعمل شىء آخر سوى أن تسمع العزف البارع للشاب الذى يبدو أنه لا يعرف اسمى لكنه يتحدث إلى، فى كل مرة نلتقى، بحميمية شديدة.

يبدو "ريكاردو" كأنه يستعرض مهاراته من أجل أن تحوطه النساء، وأن تثنى عليه واحدة أو أكثر منهن، لكنه فى هذه المرة جذب أسماع مدرسة الصحافة التى لفتت انتباهى بثقافتها الواسعة حين حضرت محاضرتها الأولى، وراحت تتحدث كمتخصصة فيما كتبته الصحيفة المحلية حول حقوق حضانة الطفل الجديدة، بعد أن قامت أم حاضنة برفع قضية على الحكومة بادعاء أن مبلغ الإعانة الممنوح لها سنويًا لحضانة طفلها لم يعد كافيًا فى ظل الارتفاع الشديد الأسعار.

لم يهمنى الموضوع آنذاك، باعتباره قضية محلية تخص أهل البلد، لكن المدرسة راحت تتحدث عن كافة جوانبه النفسية، والاجتماعية، وجذور القانون الذى صدر منذ عدة أعوام ولم يعد صالحًا.

كان الهدف من الدرس هو أن يتعلم المرء كيف يقرأ موضوعًا فى صحيفة من معانيه الخفية. تصورتها متخصصة فى قضايا التربية، أو العلوم القانونية، أو الإنسانية، لكنها فى الحصة التالية تحدثت عن لاعب الكرة

الفرنسي زيدان، الجزائري الأصل ، بمناسبة زيارته للمدينة، باعتبارها متخصصة فى لعبة كرة القدم رغم أنها رددت فى أثناء تعليقاتها المختلفة :

- لا أعرف .. لماذا كل هذا الحماس لزيارته !

قلت لها بعد أن انتهى "ريكاردو" من العزف :

- أود أن أعبر لك عن إعجابي الشديد بثقافتك الواسعة .

ببساطة شديدة هزت رأسها ممتنة، قلت لها :

- أود أن أعرف كيف يستقي المرء كل هذه الثقافة .

ردت : الحياة موسوعة مفتوحة .

سألتها : هل يتواجد سوق للكتب القديمة فى المدينة القديمة ؟

أجابتني بسؤال :هل تود أن ترى سوق الكتب .. هل لديك وقت ؟

وأنا أهز رأسي، وجدت نفسي أسير إلى جوارها ونخرج من مبنى الجامعة العتيق ، ويستغرقنا الحديث، تبحر بي إلى عوالمها الواسعة التي تكشف عن امرأة عاشت سنوات كثيرة من حياتها تبحث عن معنى الوجود ، سألتها عن كتاب "الفولكولور في العهد القديم"، حينما عرفت أنها متخصصة في الأنثربولوجي، وأنها تعد أطروحة عن المعنى المعاصر للبوذية . ردت :

- العقائد كثيرة ، ومتشابهة ، جميع البشر يعبدون الله، ولا يكفون فى البحث عنه .. منذ بدء الخليقة ، وحتى تنتهي الحياة .

كنا قد وصلنا إلى مكان غريب في شارع رئيسى قريب من الجامعة ، إنه مكتبة عامة يمكن استعارة الكتب من أرففها مقابل سعر زهيد ، وفي أحضان الكتب هناك مقهى ومطعم ، طلبت لنا فيه طبقين أساسيين من الخضروات والتونة ، وزجاجة بيرة ، وبعض الخبز ، وراحت ترد على أسئلتي التى أطرحها عن فلسفتها الخاصة، إنها امرأة مختلفة، صاحبة موقف فى الحياة ، خرجت إلى الدنيا فى نهاية الستينيات وزارت الصين، وإفريقيا وانبهرت بإسرائيل المنتصرة فى حرب يونيه ، لذا انضمت إلى معسكرات الكيبوتز، حيث بدت لها الفكرة مثالية عن أقوام يأتون من العالم كله ،

وعرفت منها لأول مرة أن معسكرات الكيبوتز لم تُقَمْ فقط من اجل اليهود بـل تمت دعوة كافة الشباب المؤمن بالعالم الجديد .بدت لها التجربة مدهشة، فإسرائيل دولة منتصرة وتعيش فى مرحلة مزدهرة ، ولكن :

" فجأة هربنا من هناك. لم نحتمل العنصرية التى عاناها البعض فى المعسكرات، واكتشفنا أن إسرائيل أكذوبة . بلد قامت على الشعارات".

شعرت بارتياح لما تقوله، لم يبد أنها تجاملنى لأننى عربى، خاصة أن أخبار دموية شارون تزكم الصحف التى تحللها لطلبتها فى الجامعة .قلت لها :

- هل يمكن أن يردد المرء مثل هذا الكلام علنًا ؟

بدت كأنها تهمس :

- تبدو هذه البلاد حرة . لكن ما يقال حول موائد الطعام لا يكتب عادة فى الصحف .

بدت "كارول" امرأة مختلفة ، أستاذة جامعية مثل "ميليسا"، و"مارينا"، لكنها تفتقد إلى جمالهن، وبدا النضال الفكرى والسياسى كأنه قد أذبل الكثير من أنوثتها ، حاولت أن أستشف عمقها ، أو شيئًا ما عن حالتها الاجتماعية الحالية دون أن أكون كثير الأسئلة، فالناس هنا لا تحب أن يتوغل الغريب، عند أول لقاء، عن حيواتهم الخاصة ، إنها ملك لهم وليس من حق عابر طارئ أن يعرف الكثير، ولا القليل . يبدو الناس هنا أشبه بصناديق مغلقة ، لا يريدون من الآخرين أن يفتحوها رغم المودة الشديدة التى يبدونها أمامك وهم يدعونك لتناول الطعام معهم، المقصود بهذا التعبير أن يختار كل طرف ما يود أن يأكله ، وأن يدفع الثمن مضافًا إليه بقشيش قليل قبل الانصراف .

كان السؤال الذى يدور بالذهن هو : هل يتعارض علم الأنثربولوجى مع ما جاء فى الكتب المقدسة ؟

هزت رأسها وقالت : دع الناس تؤمن بما تحبه دون أن نراجعهم ؟

لم يدر فى خلدى أن أتصور ، مهما كانت الإمكانية ، أن فراشًا يمكن أن

يضمنا. قالت: تربيت على الوجودية.

رحت أعدد لها كتب الوجودية التى حفظت بعضها وأخبرتها أن مصير سيزيف يزعجنى، وأن الناس تحب أن تشعر أن لكل شيء هدفه الملموس.

ردت: ما رأيك أن تأتى الليلة إلى الحفل الغنائى؟

إنها تدعونى لأتعرف على آفاق أخرى من المدينة، قمنا نغادر المطعم المكتبة. أحسست وأنا أمشى إلى جوارها، عائدين إلى الجامعة، أنها ليست موسوعة معرفية، بقدر ما هى موقف إنسانى وتجربة حياتية، لم أتسائل عن زوجها الذى عاشت معه هذه السنوات ينتقلان إلى النقاط الساخنة سياسيًا، ويشاركان فى التعرف على الظروف التى أشعلت النيران فى هذه البلاد. قالت:

- الطغاة، والارتباط الطويل بالمنصب يشعل النيران فى البلاد التى اعتاد سكانها على التمرد.

هززت رأسى فى أسى وأنا أنظر إلى الشارع الساكن الطويل فى الساعة الثانية من نهار اليوم، وأدركت أن الناس هنا لا تكاد تعرف حتى اسم الحاكم، ومع ذلك يحيا الجميع كأنهم فى الفردوس.

ترى هل سيكون فى الفردوس حكام بنفس الطريقة التى صنعتها المجتمعات لنفسها فى الأرض؟

سألتنى قبل أن أودعها عند باب سيارتها:

- هل ستأتى هذا المساء لحضور الحفل الموسيقى؟

إنها فرصة لا ترفض، لكنها ستكون أفضل لو جاءت كاترين بدلاً منها إلى هناك، راحت تعطينى خريطة الحديقة الواسعة التى تقع على مقربة من البحيرة والتى سيبدأ الحفل الغنائى بها فى الثامنة مساء. قبل الموعد بساعة كان بشر من جميع الألوان والأجناس قد توافدوا على المكان قادمين من أنحاء عديدة من أقطاب الكون، المدينة لا تكف عن ابتكار أساليب للبهجة، ورغم أنه من الصعب العثور على شخص بعينه وسط هذا التدفق البشرى المتموج، فقد خيل لى أنها هناك، جالسة فوق عشب

الحديقة، ليست بالطبع أستاذة الجامعة التى بدت لى امرأة عبرت الخمسين ملفوفة بالعديد من المتاعب التى جعدت بعض قسمات وجه لا يتسم بجمال غير مألوف ، بل هى امرأة تزينت باهتمام شديد قبل أن تخرج من الدار، لم تضع المساحيق التى ألفناها بكثرة فى بنات مدننا، حتى هؤلاء اللائى يغطين الشعر بإيشارب بادعاء التدين والعفة، فالنساء الجميلات، خاصة فى هذه المدينة ، لسن فى حاجة لإبراز جمالهن الفاتن بمساحيق، لكن لكل امرأة جمالها الخاص. تكمن فيه هوية بعينها، يمكن شمها حينما تمرق إحداهن إلى جوارك. فتلفظ على وجه السرعة، فى داخلك أو بصوت مسموع : "يا إلهى إنه عطر..." .

والنقاط الثلاث تعنى بالطبع اسم الزهور أو الشركات التى تقوم بتصنيع هذا النوع من العطور .

هذه بالتأكيد ليست "كارول" ، إنها امرأة أخرى ، أعدت كل شيء من أجل الخروج فى هذه الساعة من النهار ، ترتدى "تى شيرت" أحمر وبنطلونًا قصيرًا ، وقامت بتغيير تسريحة شعرها القصير ، وجهزت سلتها بأطعمة عديدة لزوم النزهة الخلوية فى حديقة استوعبت عشرات ألوف البشر ، تستعد أن تحتضن المتدفقين الذين لم يكفوا عن الدخول من الباب الحديدى المكتوب عليه أن هذه الحديقة أهداها صاحبها فى عام ١٩٢٣ من أجل الخدمة العامة .

بدت منشغلة بإخراج الشطائر من سلتها مما يعنى الاهتمام الشديد بهذا اللقاء ، لم تنتبه إلى وجودى وأنا أناديها إلا حينما نبهها إلى ذلك الشاب الجالس إلى جوارها ، رفعت رأسها وردت على تحيتى باهتمام شديد ونبرت : أهلا، لقد جئت .

لم تدعنى للجلوس، ولا يمكن أن أفعل ذلك بالطبع فى وجود قرابة أكثر من عشرة من تلاميذ فصلها الذى تقوم بالتدريس له فى الصباح ومن بينهم "ريكاردو" ، من الواضح أنها نزهة خاصة . أتى كل منهم بسلته الصغيرة التى تضم الطعام والمشروب، والحلوى ، وأن الجميع قرر

الخروج معًا بمناسبة الحفل الموسيقى المجانى الذى تقيمه بلدية المدينة عادة فى هذا الوقت من العام. انتابنى الإحساس الشديد بالغربة ، وتمنيت لو كانت" موريبل" هنا ، تلمسنا جميعًا حولها فى دائرة واحدة ، وقد جلست اليابانية "كاو " على يمينى ، والصينية "لاي" على اليسار، و"كاترين" فى المواجهة ، و"لينا" تخرج النبيذ من سلتها ، وتقدم لى الشيلية"أندريا" شطيرة مصنوعة من أجبان أو لحوم أمريكا اللاتينية، بينما تدندن "باتى" إحدى أغنيات الباهاما التى جلبت منها خصيصًا لتحضر هذا الحفل الموسيقى، ومن حولنا "ماتى" الألمانية ، و"كاتيا" السلوفاكية ، وزينب التى تعيش فى مدينة ألمانية بعيدة مع أسرتها ذات الأصل التركى، و"نينا" الروسية، و"ايتسكا" الصينية، ووسطهم يتناثر شباب فصلنا قليلو العدد القادمون من إسبانيا، وتشيك، وبيرو، وسويسرا .

تمنيت ألا تدعونى للجلوس مع تلاميذها حتى لا يمزقنى إحساس مضاعف بالغربة لا أفتقده ، ومع ذلك فعلت ، هززت رأسى ببساطة لم تعكس إحساسى بالإحباط وأنا أتمنى فى أعماقى لو صارت "كارول" لى وحدى وسط حديقة خالية من البشر أكلمها عن الوجوديين، أو المؤمنين ببوذا، وكيف يعيشون حيواتهم، أو أن نرقص على أنغام موسيقى بدت كأنها تبخرت تمامًا من المكان، وأنا أسحب قدمى إلى مكان الحفل الذى لم يبدأ بعد .

ما أقسى أن يحس الغريب بمشاعر الوحدة الشديدة، رغم هذا التدفق البشرى المبتهج، وهذه الجماعات التى تتحرك معًا، لم أدقق فى المكان لأرى هل هناك الكثير مثلى ، لكن الشعور السحيق بالاغتراب يتضاعف كلما رأيت تجمعات الشباب تزحم النجيل الكثيف الخضرة، يتبادل شابان القبلات الفمية بحرارة، وتلامس الأكتاف ، وبينهما فتاة لعلها تنتظر دورها فى أن يحس بها أحدهما أو كلاهما، أطعمة ومشروبات تتناثر وسط المجموعات الصغيرة التى استعدت للرقص بعد قليل عندما ستظهر الفرقة التى ملأت آلاتها المتطورة كل هذه الخشبة مما يوحى بمدى البهجة التى

يتمتع بها الناس عندما يأتون إلى هنا .

تتصاعد أبخرة السجائر المعبأة بأنواع عديدة من المخدرات، وشاب يحقن شريان يمناه بمهارة ، كأنه اعتاد أن يفعل ذلك أكثر من مرة فى اليوم ، من الواضح أنها طقوس خاصة تجدد مشاعرى بالاغتراب والوحدة، يبدو "ميرسو" تلميذًا مبتدئًا لما أحس من مشاعر قياسًا إلى ما دفعنى إلى أن أعود إلى فندقى مؤثرًا السلامة ، وحتى لا أكشف تخلفى الشديد أمام نفسى، أنا الفخور بجبى لما تمثله هذه الثقافة ، لكن قبل أن أفعل رأيتها :

- هاى أنجلينا .

ابتسمت : هاى .

تفترش نفس الأرض ، وسط هذا الزخم الكبير من البشر، ومن الواضح أنها تنتظر بقية زملائها فى الفصل، فقد افترشت من أجلهم المكان القريب من مسرح الغناء لتضمن أن تكون فى موقع متميز، سلتها تؤكد أنها استعدت مثلى، قررت أن أخبر "موريل" التى أبلغتنا أيضًا بموضوع الحفل فى الصباح، لوحت بأصابعى إلى "أنجلينا" وقلت مشيرًا إلى جهة البحيرة :

- المحل الذى يبيع الملابس إياها يقع عند الطرف القريب من البحيرة .

هزت رأسها بما فهمته أنه ليس من اللائق الحديث عن محلات الملابس المستعملة فى مثل هذا المكان .

اندهشت بالأمس حين رأيتها تنحنى فى السوق القديم نحو كومة من الملابس المستعملة وراحت تنتقى منها لنفسها. حييتها، ووقفنا نتكلم بعض الوقت، عرفت أنها إيطالية الأصل، وأنها ستعود إلى نيويورك قبل انتهاء الفصل الدراسى بيومين ، وذلك بالمرور أولاً إلى إسبانيا . دفعنى جبنى الشديد ، الذى لا أعرف مصدره الحقيقى، إلى تجاهل دعوتها لتناول مشروب فى أحد مقاهى السوق، أو الغداء فى مطعم الجامعة القريب ، وحدثتها بكل حماقة عن محل للملابس المستعملة يبيع بضاعته التى تبدو دائمًا جديدة بأسعار زهيدة ، تديره عجوزتان من يوغسلافيا السابقة، هزت

رأسها وكأنها تعنى أن وجودها فى السوق القديم تم بمحض الصدفة وانسحبت مطلقة ابتسامتها التى تميزها .

لا أعرف الآن ، هل استطعت أن ابتسم بأى نوع من انفراجات الشفاه، وأنا أستودعها قائلاً :

- أفتش عن زملاء الفصل .

وخرجت إلى البحيرة، لكننى توقفت عند البوابة الحديدية عندما لمحتها. إنها "كارول" تتجه ناحية سيارتها الصغيرة القديمة، حاملة سلتها ، توقفت خلف شجيرة نادرة، حتى لا تراني، بدت كأنها تعيد بعض الفوارغ إلى السيارة لتأتى بأشياء جديدة، تتسم بنشاط وحيوية لا يعكسهما سنها أو ملامح وجهها .

تبدد الانطباع الأول الذى رسمته عنها ونحن فى المطعم المكتبة .

قلت لها : رأيتك بالأمس تعودين إلى سيارتك ..لم أشأ أن ..

قاطعتنى ببساطتها : لماذا ..؟. دعوتك لتكون معنا .

فوجئت بها تدخل الفصل بين الساعتين، كانت "موريل" قد انتهت من مسح آثار الطباشير فى المنشفة المبللة.سألتنى : هل وراءك شيء بعد الحصص؟ هززت رأسى بالنفى ، قالت :

- سوف أنتظرك فى مقصف الجامعة .

أشرت إلى "موريل "وقلت :

- هذه مدرستى التى حدثتك عنها .

بلا مبالاة ، هزت رأسها مما يؤكد لنا أنها لا تعرفها ، وأن "موريل" تقوم بالتدريس فى هذه الجامعة لأول مرة تقريبًا ، جلست أنتظرها فى المكان الذى اختارته، اقتربت سلمى من المائدة التى أجلس عليها، بلهجتها الفلسطينية وابتسامها المنفرجة رددت :

- هيك .. صباح جميل. هل قرأت الصحف العربية اليوم؟

قلت : الأخبار بها توجع القلب .

ردت ببساطة من لم يسمع طلقة رصاص قط :

– نعيش فى وجع القلب هذا ليل نهار .. أنتم تكتفون بتصفح الجرائد .. ومصمصة الشفاه .

بعد أن أطلقت "كارول" تحيتها القصيرة، أمسكت بيد سلمى، وقلت مشيرًا إلى "كارول" :

– من فضلك .. تأملى هذا الجمال الشرقى الهادئ، صاحبته ليست فقط فى السابعة عشرة من العمر، لكنها تحمل فى رأسها ذكاء حادًا ، جعلها تتقن اللغة الفرنسية فى أقل من سبعة أشهر، وهى بذلك تتحدث لغات ثلاث بطلاقة . ربتها أسرتها وسط ظروف بالغة الصعوبة ، ونمت خلاياها الفلسطينية ترغب العيش فى سلام داخل وطنها ، وفجأة ، بدون مقدمات تنطلق رصاصة إسرائيلية لتفقدها هذه الحياة الغالية .

كنت قد عرفت كيف تفكر" كارول"، فبعد صدمتها فى تجربة الكيبوتز تفهمت حقيقة ما يدورمن أحداث بشعة يرتكبها الإسرائيليون ضد شباب لا يحمل سوى الحجارة للمناشلة باستعادة أرضه ، أكملت :

– يموت شباب فى نفس السن والتوقد والذكاء يوميًا برصاص الإسرائيليين ، والعالم يكتفى بسماع الأخبار .

لا تتوقف سلمى عن الابتسام ، وكأنما مزج الدموع بالضحك سمة فلسطينية كى تستمر الحياة، طلبت سلمى أن تستأذن ، قلت لـ"كارول" :

– طلبتك بالأمس فى الهاتف، لم يرد أحد .

علقت : كنت مع حفيدى . إنه معى لثلاثة أيام ، عندما سيغادر سأكون معك .

نظرت إلى المائدة المجاورة وقد ضمت" موريل" وزميلتين لها جلسن يحتسين المشاريب الساخنة ، وسط أمطار الصيف التى تهطل فى الخارج دون أن يحس أى منا بأية برودة . دفعتنى غريزة المقاومة الثقيلة التى تستبد بى دومًا إلى النظر إلى "كارول" التى تجاوزت الخمسين، وإلى نضارة "موريل"، وقاتلت رغبتى فى النظر إلى كل ما حولى باعتباره مؤنثًا يمكن ولوجه بطرق شتى : النسله ، والكافتريا، والفاكهة، والأشجار التى يلجها

ماء المطر، والمائدة التى تضمنا، والبساطة التى تتسم بها كل من "كارول"، و"موريل". لم أكف عن التساؤل : هل تعيشين مع أسرتك ؟

قالت بدون نبرة ندم : نحن منفصلان .

يعنى هذا ، بكل سهولة أن تقلم قرابينك الخاصة إلى المرأة ، كى تصعد فى النهاية إلى فراشها ، حتى وإن بدا صدرها ذابلاً وهى تتخلى عن كافة ما تلقته من علم من أجل أن تستفيد من وجود جسدها راكيًا لروحها، ترى هل لوعاد المرء إلى الأصدقاء، فهل يفخر أنه صعد إلى فراش امرأة تجاوزت هذا السن؟ لا أريد أن أكون مثل بطل الفيلم الذى اضطر إلى الزواج من امرأة عجوز للفوز بشقتها ومالها، وسيزيف علمنى أن الثمن هو اللاجدوى أو العبث ، ومع ذلك سألتها :

– ألن نذهب معًا إلى حمام السباحة ؟

إنه نفس السؤال الذى رددته بين الحصص لـ "موريل" ، والغريب أنها نفس الإجابة :

– ربما يوم الأحد . فى العطلة .

قلت لها : حضرت حصتك الأخيرة . مندهش أنا من ثقافتك السيالة .

لم أشأ أن أبلغها أن الكثير من مثقفات مدينتى قررن التخلى عن فعل الأنوثة وأن الكثير منهن تشبهن بالرجال فى أصواتهن الخشنة، وحيواتهن الأسرية المفككة، والحديث دومًا بتاء التأنيث رغم أنها يمكنها نشر إعلان تبرئة دمها من الناطقين، أقصد الناطقات، بهذه التاء، لكن "مارينا" هى الملامة الأولى فى ذلك، فقد سرقت أنوثة كل مثقفات الكون لتحتفظ بها لنفسها ...

هذه الفاتنة الملعونة لم تصل طائرتها بعد، وتتركنى فريسة لهذه العجوز، ولفارق السن الواضح بينى وبين "موريل"، مما يشعرنى كل يوم بأننى أكثر وحلة ، ووحشة .

توجهت إلى مقصورة الهاتف المعلق إلى جوار باب الجامعة :

– آلو .. مارينا .؟

- آه .. أهلاً .
- كم افتقدك .. أشتاق إليك ، متى تأتين ؟
- متاعب الحصول على فيزا لا تزال مستمرة .
- جئت هنا من أجلك .
- وكم أتمنى أن أركب أول طائرة إليك .
- حالتى شديدة السوء بدونك ، المدينة خاوية من البشر .. تعالى .. أرجوك .
- لن تغادر المدينة قبل أن تلقانى .
- وعد ؟
- قبلاتى .

تدفعنى المدينة إلى البحث عن كافة المعانى المؤنثة فيها ، أعود إلى الفندق . وأتعمد دخول المطبخ المخصص لنزلاء الدور الرابع لعلى ألتقى بالمصادفة العمدية بتلك الأسيوية التى تسكن فى الغرفة المقابلة مع زميلاتها ، وتتعمد أحيانًا أن تترك الباب كى أفتش عنها بعينى، لماذا لا أدعوها أن تأتى معى إلى حمام السباحة، اليوم بعد أن أشرقت الشمس، وليس يوم الأحد القادم. كان المطبخ خاويًا إلا من روائح طهى غريب تدل أنها كانت هنا ، اكتشفت للمرة الأولى فى حياتى أن الرائحة الفواحة ، مهما كان نوعها، أيضًا "مؤنث". قبل مغادرة المطبخ خائبًا ، سمعت صوت خطوات، إنها هى بالتأكيد، اقتربت صاحبة جسد نحيل ، حاملة برادًا صغيرًا لإعداد قهوة ، يا إلهى ماذا يحدث فى المدينة ، لماذا يكثر هذا العدد من العجائز ، إنها المرأة المقيمة فى غرفتها المجاورة لى ، لا تكاد ترمى بأية تحية لأحد . ويبدو أنها قررت خرس فمها للأبد مع الآخرين . يا إلهى، لسنا نحن الذين نصنع الغربة ، واللاجدوى من حولنا ، بل هو استعداد الآخرين للتوحد معنا ، أو العزلة بأنفسهم عن الآخرين .

عندما صعدت إلى السطح لألتقط نسائم هواء الجبل القريب، رأيتها قد أخفت وجهها وتركت للصاعد الفرصة ، لاختلاس النظرات إليها ، أن

يرى جسدًا ناضرًا متمددًا تحت أشعة الشمس التى لا تتأخر فى الصيف عن السطوع فى مثل هذه الساعة، بعد شدة الزخات التى لم يبال بها الجميع فى الفصل فى أثناء الدرس الأول .

كرهت البصاص الذى يسكننى ، أحب التواصل مع الآخرين ، وليس سرقة نظرات سريعة، يا إلهى! أية متعة يجدها اللصوص فيما يأخذون الأشياء من أصحابها دون درايتهم، لكن هذه المرأة ، التى تتمدد دومًا فى مثل هذا المكان مستغلة الشمس الساطعة، تكشف جسدها البرونزى اللامع كما الذهب النقى ، ووقفت بعيدًا أتأمل ، فهذه المرأة ذات الجسد الفياض صاحبة وجه أصابته الشيخوخة بالكثير من الكسور، وهى واحدة من معالم الفندق منذ سنوات عديدة ، كما قال لى "مارك" الذى احتسيت معه عصير البرتقال قبل يومين والذى أقام هنا عدة أشهر ، ويحب الحضور من وقت لآخر لاستعادة لحظات جميلة :

- إنها امرأة تعشق جسدها البرونزى .

قلت له : لمن يتجمل مثل هؤلاء النسوة؟ من يتمتع بجسدها؟

رد : لا يمكن لأحد أن يتمتع به ، فوجهها ملئ بالحوارى الضيقة .

ترى هل تذهب هذه المرأة جسدها الفاتن من أجل رجل رحل عنها . أم أنها تقاوم بهذا اللون البرونزى الشديد الجاذبية كافة وحوش الشيخوخة التى استطاعت أن تطال وجهها ، لكنها لم تجرؤ على الاقتراب من جسدها، فجأة تحركت فى مكانها ، ولم أستطع أن أخفى تلصصى ، رأتنى ، لكنها سرعان ما استدارت كأنه ليس فوق سطح الفندق سوى أشعة الشمس التى تضاجعها، فأعطت لهذه الأشعة بطنها الذهبية كأنها تفتح لها كافة مسامها لتلج فيها .

أليست الشمس مذكرًا سالًا ومسامها أنثى بالغة الشبق ؟

فجأة تذكرت "كارول" ، يا إلهى ! إنها تصغرها بعشرين عامًا على الأقل ، تراءت لى بين طلبتها فى الحديقة ، متدفقة ، حنونة ، رقيقة، عائلية، تسللت ناحية مصعد الفندق ، ونزلت إلى الشارع دون أن يخطر ببالى أن

أبحث عن جارتى الأسيوية التى تفتح الباب أحيانًا من أجل أن نتبادل تحية لا تخرج عن الابتسام وهز الرأس ، وراحت كافة الصور المحتملة لكارول وهى تتمدد فوق الحشائش وقد تلفعت بالبيكينى ، فكشفت عن البشرة الذهبية التى تغطيها من أسفل العنق ، وحتى ساقيها، من الواضح أن هذا النوع من النسله يولى جسده نفس اهتمامه بالروحانية التى عكفت على تربيتها باعتناقها البوذية منذ أن صدمت فى الكيبوتز وقررت أن تذهب إلى الشرق الأقصى، وتوغلت داخل خلاص النيرفانا .

يا إلهى ، بعد هذا العمر نعيد اكتشاف الأشياء بمعانى مختلفة، فالروح مؤنث، أى يمكن الولوج فيها ، وبقوة الإحساس بالصوفية .

بل إن "النيرفانا" أيضًا مؤنث ، ويمكن مضاجعتها بكل قوة ، والدخول من خلال التأمل - مذكر سالم - إلى أعماقها فترتعش بكل قوة ونلهث ، ونصل بعد فترة طويلة من الالتحام بين المذكر والمؤنث إلى قمة الشعور بلذة الروح ، وإلى ذروة سرمدية تعجز الألسنة عن وصفها، والأقلام عن إيجاد المرادف اللغوى لمعناها الحقيقى، ترى أية امرأة هى" كارول" ، ولماذا لا نلج فيها بطريقتها البوذية ؟

دفعت بطاقة الهاتف داخل الجهاز ، وأدرت القرص ، وسمعت جرس هاتف منزلها ، وجاءنى صوتها على الطرف الآخر من الخط ، مليئًا باللطف :

- كارول تحييك، وترجوك أن تتكلم فى وقت آخر، سأتصل بك حين عودتى بناء على رسالتك التى تتركها، وهاتفك الذى تفضل أن أخابرك عليه تذكرت أن الفندق له تليفون واحد فقط ، وأننى أغلب الوقت خارج البناية، وأننى فى حاجة إلى أن ألج فيها بأى شكل الآن ، خاصة على الطريقة النيرفانية ، ولابد أن أكون على مقربة منها ، قلت لنفسى :

- لعلها الآن فى المطعم المكتبة .

وقررت أن أنطلق إليها بقوة رغبتى المتوقدة فيها .

الأنثى الثالثة

ترى هل تنتابنا دومًا الرغبة فى مضاجعة جسدية لكل ماهو مؤنث ؟

وما نوع المضاجعة التى يمكن للمرء أن يمارسها مع بنت من طراز سلمى ؟

سألتها : ما معنى إخفاء شعر المرأة فى مدينة لا يبص الرجال فيها إلى شعر المرأة ؟

ردت : الإيشارب صار رمزًا للكفاح ضد إسرائيل . لم أضعه فوق رأسى إلا بعد أن وعيت جسامة قضية الوطن .

فتاة مختلفة .

لعلها الفتاة العربية الوحيدة وسط خمسمائة طالب من مختلفى الأعمار والأقطار، لفت الإيشارب أنظارى إليها وسط هذه الرءوس المتباينة التسريحات والتيجان الذهبية والسوداء المعقوصة والمصبوغة أحيانا بألوان غريبة ، من الجنسين . تساءلت : ترى أيصبح معقولاً أن تغطى فتاة شعرها أمام مجموعة من العميان؟ إنهم لا ينظرون إليك ، يبدون كأن عيونهم إما موجهة للأمام ، وإما إلى داخل جماجمهم. وبالتالى فإن الطامعين والذين فى قلوبهم مرض قد تلاشوا هنا تمامًا ، فالطبيعة البشرية تفرض قوانينها على الناس، وددت أن أنقل إليها وجهة نظرى، فى البداية لم أتوقع أن تكون عربية، إلا إذا كانت من دول المغرب . لكن الفتاة المغربية التى جلست فى المركب النهرى بدت قصيرة الشعر، وكأن إخفاء تاجها ليس أمرًا مفعولاً فى بلاد تخلو، فى الشوارع، من المحملقين فى الوجوه، رأيت الفتاة المغربية مجددًا إلى جوار زميلها مرة ثانية فى المقاعد الخلفية من المدرج. لا يكفان عن الحديث رغم صوت المدرس الجهورى الذى لا توقفه أية ثرثرة، جلست

خلفهما مباشرة، بدا كأنه يستلم أذنها من جديد، وأنه قطع شوطًا لا بأس به فى إقناعها أن تأتى للإقامة هنا، واقترح عليها أن يفتح محلاً صغير، يتوسع فيه بعد استقراره ، وأنه يحتاج إلى بنت الحلال التى تفهمه ، و...

يا إلهى ، أنا قادم إلى هنا بسمات بلادى وناسها، فلست فقط ممن يحملقون ، فى قلبه المرض، ولكنتى أيضًا أتلذذ بسماع همسات الآخرين ، لذا يجب أن تضع النساء ، وأيضا الرجال، "إيشارب" خاصًا فوق الأفواه من أجل ألا يحشر "السماعين" مثلى بآذانهم وسط ألسنة الآخرين لمعرفة خصوصهم .

رددت رأسى للخلف حتى لا أكون مثل الشاب الذى سرت فيه نخوته على طريقته فى إحدى عربات الميكروباص، وراح ينبه برجولة هبت فيه ضد الثنائى الذى يجلس مباشرة وراءه باعتبار أن الكلام الذى يردد الشاب للفتاة الجالسة معه لا يليق سماعه، وأن العاشقين بذلك تجاوزا كل الحدود. مالبثت أن ثارت نخوة مقابلة فى البنت الجالسة أيضًا إلى جوار أختها الصغرى ، وقالت :

– من قال إننا نتكلم فيما يؤذيك ؟

واشتعلت مواجهة بين الثلاثة أشخاص، وبين الشاب "السمّاع" المتأذى من عبارات الحب الساذجة الذى تبادلها شاب صغير لم يتجاوز الثامنة عشرة مع فتاته التى تقارب سلمى فى العمر وهو يخرج معها وأختها فى طريقهم إلى الحديقة الدولية .

بدت المحبوبة الصغيرة بالغة الحدة فى مواجهة "السمّاع" ، أما حبيبها فقد أصر أن يأخذ حقه من الزعيق، بينما حرصت الطفلة على عدم إفساد استعدادها لقضاء ساعات مبهجة فى الحديقة الدولية، قلت محاولاً إبداء رأيى فى مواجهة اشتدت كأنها ستنتهى فى قسم الشرطة، وليس فى الحديقة الدولية :

– لماذا نتلصص على ما يردده الآخرون من حولنا، إذا كان أقرب إلى الهمس خاصة أن جارك الجالس إلى جوارك لم يسمع شيئا ؟

من الواضح أنه متدرب جيدًا على هذا النوع من التلصص، وأن يحشر نفسه فيما يتبادله مجاوروه فيما بينهم ، مثلما أفعل مع الشاب والفتاة المغربيين المغتربين فى أوربا ، لكن الناس فى هذه المدينة يبدون كأنهم داخل جزر معزولة، فأنا الوحيد فى الترام الذى لفت انتباهه هذان العاشقان اللذان تبادلا القبلات بالألسنة طيلة الرحلة التى استغرقت سبع محطات .

اكتشفت من حلاوة "القبلة" أنها "مفرد مؤنث" فى لغتنا، وأن الألسنة تلج فى بعضها مما يعطى إحساسًا مختلفًا عن الاكتفاء بالتصاق الشفاه ، يا إلهى أى نوع من البشر هم فيما يخص التلصص على الآخرين بالبص والسماع، وأى بشر نحن فيما نعطى لأنفسنا السلطة على أسرار الآخرين "ولا تجسسوا" ؟

بدت سلمى بالغة الذكاء، وهى ترد على سؤالى عن جدوى الإيشارب فى مدينة عميان ، غير بصاصين ، قالت مكملة :

- إنه شعار نضالى .

ما يحدث فى فلسطين هو أضعف مافى العرب ، وأقوى ما يجمعهم معًا وسط خلافاتهم الأبدية . استطاعت سلمى أن تلكمنى ، وهى تحمل بعض الصحف العربية الصادرة فى أوربا، قالت، دون أن تعلو نبرتها أية مشاعر بالفرح أو الألم :

- هذه جرائد عربية ، هل تحب قراءتها ؟
- سمعت أن سعر الدولار فى مصر ارتفع .
- هل يهمك هذا الخبر؟
- بالطبع .. إنه يعنى أن قيمتنا قلت بنسبة ارتفاع قيمة الدولار .

فى هذه البلاد، حين نشترى أى شىء ، فإننا نترجم قيمة ما نشتريه بالعملة المحلية على الفور إلى عملتنا غير المذكورة بالمرة فى أى من قوائم البنوك المتناثرة فى المدينة .

كانت سلمى قد اقتربت منى لأول مرة ، وقالت : أنت عربى ، أليس

كذلك ؟

هززت رأسى وقلت : حسبتك من تركيا .

بكل فخر قالت : أنا فلسطينية . .

سألتها : ماذا تفعلين فى المدينة ؟

ردت : أدرس الفرنسية ، أريد أن أدرس الطب .

توقعـت أن تبلغـنى أنهـا ستدرس علوم السياسة والاقتصاد ، وأنها لهذا السـبب تحـاول إتقان إحدى لغات المدينة المليئة بالمؤسسات الدولية، رددت أنهـا أتقـنت الفرنسـية فـى عـدة شهور قليلة، وأنها ستسافر إلى الولايات المتحلة فـى العـام القـادم مـن أجل البدء فى دراسة الطب ، وددت معرفة الكـثير ، كعـادتى ، عـنها، قـالت إنها فلسطينية من الأرض المحتلة ، سابقًا ، تؤيـد أبـو عمـار ، طلـبت مـن أمهـا أن تقـوم بعمـلية انتحارية كى تلحق بالشـباب النضـر الـذى تـرك دمـاءه عـلى الطرق العامة وأوجع القلوب، وحصل على خاتم الشهادة لأنه مات من أجل الوطن، ردت الأم :

– القضية تختزنك لمهمة أخرى .

تـرى هـل خـافوا عـليها فأرسـلوها إلى عمها فى أوربا بحجة أن تكمل تعليمها بإتقـان الـلغة الفرنسـية؟ ومـن أوربا عليها المغادرة إلى الولايات المـتحلة ، أم أنهـم بالفعل يجهزونها لمهام أخرى دبلوماسية، أو أن تصير أنثى تـنجب المـزيد مـن أطفـال الحجـارة فـلا تكـف المواجهـة حـتى يحصـل الفلسطينيون على دولتهم ؟

فجـأة، اكتشـفت أن"القضـية" أيضًا "مفرد مؤنث" مثلما سلمى أيضًا مؤنث، وأن فلسطين جمع مؤنث سالم، لم تلتفت نظراتى إلى أنها أنثى ، فهى أقرب إلى الأطفال ، سألتها :

– هل قرأت رواية "العملية هيبرون" ؟

هـزت رأسـها بالـنفى، أخـرجت الـرواية مـن حقيبـتى ومنحتها إياها، وأشـرت أنهـا تكتشـف كيـف تخيـل المؤلف من الواقع أن إسرائيل تزرع عميلاً لها فى السياسة الأمريكية ، وتتمكـن مـن الدفـع بـه ليصبح رئيسًا

للولايات المتحدة .

عندما التقيتها بعد نهاية الحصص خارج الجامعة فى طريقها إلى البناية الإدارية ، همست قائلاً : ليتنى لم أعرفك .

- لماذا تقول هذا الكلام ؟

- لى أصدقاء فلسطينيون فى القاهرة . ليسوا شبابًا . وهم بعيدون عن سخونة الأحداث، لم يمت منهم أحد، ولم أرهم يحملون أى نوع من الأسلحة .

- لكل شخص دوره..أخبرتك بذلك .

- لا أقصد . ليس هناك صديق حقيقى لى أتحدث معه بشكل مباشر من هؤلاء الذين يموتون يوميًا . أتألم .. لكننى لا أبكى عليهم. القلب تحجر .

بابتسامتها البالغة البراءة ردت : فهمت .

أتمنى أن تكون قد فهمت أننى كلما سأرى شابًا يموت تذكرتها ، أو تألمت لأنه أخوها ، أو ابن عم لها ، أو خطيب لأختها .

ردت : الحياة والموت لدينا على نفس الخط .لا نعرف كيف نفرق بينهما .. قدرنا .

بلغنا البناية الإدارية للجامعة ، قالت إنها فى السابعة عشرة من العمر ، وإنها فى الثانوية العامة . وهذه هى المرة الأولى التى تأتى فيها إلى أوربا ، لم يبد عليها أنها انبهرت بأشياء جديدة عليها .

فى المساء رأيتها للمرة الثالثة ، ضحكت ، قلت : أحدنا يطارد الآخر .

هزت طرف أنفها مقللة من إحساسى بالدهشة ، وقالت :

- فى هذه المدينة العرب تجدهم فى نفس الدوائر الضيقة ، إما عند البحيرة ، أو فى المطاعم ، أو هنا فى المكتبة العربية يبحثون عن أخبار أوطانهم فى الصحف والمجلات .

- ماذا اشتريت للقراءة .."الحياة" أم "القدس" ؟

- أنا أعمل هنا .

من الواضح أن الصغيرة ذات السبعة عشر ربيعًا ضاجعت هذه المدينة

فعرفتها عن ظهر قلب فى فترة قصيرة للغاية ، قالت فى الصباح ، عندما أطلقت على تحيتها المعتادة : هل قرأت آخر الأخبار .. سبعة شهداء فى انفجار برام الله ؟

سألت : هل هناك نهاية لهذه الدماء ؟

- قدرنا .

- هل تعملين فى المكتبة العربية منذ وقت طويل ؟

- مررت هنا قبل أسبوعين ، رأيت المكتبة غير منظمة .. طلبت من صاحبها أن أرتبها له ، فسألنى أن أعمل معه .

- ماذا يشترى القراء العرب هنا من كتب؟

- الكتب العربية الممنوعة فى بلادهم .. خصوصا التى تسخر من حكامهم ، وتكشف فضائحهم .

- هل هناك الكثير من هذه الكتب ؟

- أكثر مما تتوقع . وتباع بأسعار عالية ، والغريب أنها مطبوعة فى الدول العربية .

فى هذه المكتبة ، يحاول العرب القادمون إلى المدينة، أو الذين يقيمون بها ، إقامة برلمانهم المعارض لكل ما يحدث فى أوطانهم ، مهما كانت جنسياتهم ، تتوحد كلماتهم أن الحكام طالت أعمارهم فوق أنفس الشعوب، وأن دعاة الديمقراطية هم أكثر من جسم فى قصورهم ، وأن الملكيين وزعوا مقاطعات بلادهم على الأبناء،والأخوة، وأن الجمهوريين ، ساروا على نفس المنوال بطرق أخرى منها إطلاق الأبناء لإدارة المشاريع الاقتصادية، وتجهيز الآخرين ليرثوا العروش بادعاء أنهم خير المتعلمين والمؤهلين فى العلم والخبرات من كافة أبناء الشعب . "هل هناك من يصلح للحكم خيرمن ملهم ابن ملهم؟" .

الجبان الذى يسكننى دفعنى للانسحاب بهدوء من النقاش الذى ارتفع إلى السقف المنخفض ، وشعرت أن من يشعل نيران المعارضة قد يكون أول من يبلّغ مثلما يحدث فى مقاهى المثقفين بمدينتى، وقررت أن أنطلق إلى

البحيرة، إنهـا مزدحمة بكل ما هو أنثى ، هذه الفرقة الإسبانية التى تتكون مـن عـلة فتيات طلـبت مـن إحداهـن أن تصـورنى مع بقيتهن. جئن من بلادهـن مـن أجـل العزف والكسب على شاطئ البحيرة، يبدو أن العرب جـاءوا بمشـاكلهم وخلافـاتهم إلى المدينة، ولم يلقوا بها فى مدنهم الواسعة المزخومة بالفقر المدقع ، والثراء الفاحش ، رجلان من خلفى يتحاوران فى اختـلاف فيما يمس العقيدة، قررت أن أهرول وسط كتل السائحين العرب الذيـن ملـئوا سور البحيرة بعباءاتهم السوداء، ووجوه النسله المخفاة خلف ستار أسود كئيب ، سمعت من ينادينى :

– كيف حال مصر؟

انتبهت إلى الشـاب الـذى لفـت انتباهه "التى شيرت المغلف بـتوت عـنخ آمـون" . الـتفت إليـه ، كـان يجـلس فوق السور، قال بحميمية دافئة وبلهجة أهل الشام :

– كيف حال الإخوان فى مصر.. ؟ مصر مليحة .

وأنـا أتـنهد رددت : ربـاه .. العرب لم يتركو خلافاتهم فى بلادهم .. بل أتوا بها معهم وهم يتنزهون فى أوربا .

ردد زميله المبتسم الجالس إلى جواره ، وقد بدا فارع الطول :

– لا يستطيع أحد أن يتخلص من عادته بسهولة .

قاطعه الأول قائلاً :

– العرب يتكلمون فى السياسة ولا يمارسونها .

– أنـتم لم تقابـلوا سـلمى بالـتأكيد . كتلة من الحس السياسى. العرب فقـط لا يختـلفون فيما بينهم فى السياسة .. بل فى شئون الجنة الموعودة ، كل منهم يتصرف على أنه الأوحد من أقرانه الذى ستفتح له أبواب الجنة .

قال مجدى ، الطويل القامة الذى حدثنى عن مدينته العربية الشمالية :

– من حق كل إنسان أن يدخل الفردوس .

– لكـننا الآن فـى الفـردوس ، انظـر جمـال الطـبيعة وروعـة البحيرة ، أليست هذه جنة مصغرة، ماذا فعلنا بها . الناس لا تكف عـن الثرثـرة فـى

السياسة ، ولا تنسى استحضار الحكام معهم إلى هنا .

- مجرد ثرثرة ...يريدون قضاء وقت فراغ .

- أريد إقامة جنتى الخاصة ..

قررت معاودة الركض وسط جموع البشر المزدحمين فوق رصيف البحيرة الطويل . قال لى صاحب اللهجة اللبنانية : اسمى سمير، وأنا أحب محاورة الآخرين كى أتعلم منهم .

وددت أن أحدثهم عن سلمى الفلسطينية ، كنموذج مشرف لفتاة لم تعرف الطفولة بمعناها الحقيقى ، وفى كل يوم ، منذ أن أطلقت صرختها الأولى حين ولدت قبل سبعة عشر عامًا ، وتعلمت أن الطعام والشراب والهواء الملوث بالبارود والأرض المخلوطة بدماء الضحايا شيء واحد لا يمكن الفصل بينها، لكن سمير كان من الذكاء أن أعادنى للحديث عن الخطأ الشائع أن هناك تشابهًا بين الفردوس الأرضى ومثله فى أرض الأبدية المنتظر .

ناديتها، جاءت لإلقاء التحية على "كارول"، طلبت منها الجلوس، لكنها ظلت واقفة ، فبدا طولها الفارع لنا ونحن نجلس على المائدة نتناول مشروبات ساخنة، تحت "موربيل" جالسة مع زميلاتها المدرسات على مائدة مجاورة ، بدت سلمى كأنها تحجب أحدنا عن الآخر، عبرت عن إعجابى بسلمى إلى "كارول" التى تقرأ الصحف يوميًا بتمعن من أجل أن تحلل مادتها الىتلاميذها فى الفصل، هزت المرأة رأسها :

- القادة الإسرائيليون دمويون بطبعهم ،حتى دعاة السلام منهم. كانوا محاربين أشداء يومًا ما ، الأنياب موجودة .

ردت سلمى ، بينما تمنيت أن تشاركنا "موربيل" الحوار :

- إنها ليست أنياب .. بل قنابل حارقة .. ورصاصات قاتلة.. ودماء ساخنة . و..

قاطعت معبرًا عن إعجابى بالفتاة :

- هذه الفتاة تقرأ يوميًا مجموع ما يقرؤه الطلاب فى الفصل الصيفى .

أردت أن أنقل وجهة نظرى إلى "كارول" كى تعرف أن العرب أيضًا قوم ثقافة، وأنهم يمكنهم استيعاب الحياة العصرية، مثلما تتصرف سلمى بتلقائيتها، وحاولت إخفاء حقيقة أن الفصل الصيفى لا يضم من العرب الذين جاءوا لتحسين مستواهم فى اللغة الفرنسية سوى ابنة الجليل ، وأن بقية العرب قرروا إقامة دول أخرى عند شاطئ البحيرة ، وفى المطاعم الفخمة ، والشقق الواسعة، والفنادق القديمة المرتفعة الأسعار المنتشرة فى أنحاء المدينة . قبل أن أعود إلى الفصل مرة أخرى رأيتها تمر من أمام باب المدرج الصغير الذى ندرس به ، دخلت ورددت معتذرة : لن أستطيع قراءة الرواية .. أحاول تنسيق أوراقى بين أشياء أخرى عديدة .

طلبت منها أن تهدى الكتاب نيابة عنى لرفعت الذى أبدى حماسًا شديدًا لقراءتها عقب خروجنا معًا قبل يومين بعد انتهاء حفل الاستقبال الذى أقامته الجامعة لطلاب الدراسة الصيفية .

بدت "لاى" الصينية مندهشة ، أشارت إلىّ بعد أن انصرفت :

– هل هذه هى لغتكم ؟

بدا نفس السؤال فى عينى "موريبل" التى عادت من الكافيتريا ، وبدا فى نفس العينين البريئتين نفس السؤال الذى قالته بشكل مباشر فى المرتين السابقتين :

– أنت تعرف الكثير من الناس هنا رغم أنها المرة الأولى .

استغرقتنا أفعال الماضى ، وتصريفاتها المختلفة ، ولم تغادرنى ابتسامة بلهاء مما أفعله ، هل أنا فى حاجة للتقوية فى اللغة لأكون فى مثل هذا الموقف، لكن من الواضح أن الهدف تحقق، فالرحلة التى بدأت بهدف البحث عن امرأة أنسى بها "ميليسا" تحولت إلى إعجاب واضح بـ"موريبل". وانبهار ببساطتها وامتثال دائم أمامها دون أن أجرؤ على نطق كلمة واحدة تعبر عن ذلك ، وبدا وجودها هو السبب الحقيقى لوجودى هنا. لا ، بل إن لقائى بسلمى قلب أشياء كثيرة فى مفهومى لما يدور فى العالم من حولنا.

الأنثى الرابعة

لا. لم آت إلى هذا المكان من أجل تلك الفتاة البالغة الجمال الواقفة فوق الرصيف مع هذه المجموعة التى قررت الذهاب للصلاة صباح اليوم.

بدت" مارتا"، وهى تقدم لى نفسها، الأمل وسط عشرة أشخاص من بينهن فتيات لا يتعدى عمر كبراهن الثلاثين، قدمت لى نفسها مبتسمة:

- مارتا .. من جنوب إفريقيا.

لم أفهم طبيعة العلاقة التى جمعت بينهم جميعًا، وما الذى جاء بهم إلا أنهم يتمنون الصلاة فى مكان بعينه. كان سمير قد قدمنى إليها، فبدت شديدة التحفظ، وكأنها ارتابت فى نواياى باعتبارى من ديانة مختلفة عن كل هؤلاء الشباب الذين التفوا حول محطة الأتوبيس فى التاسعة والنصف تمامًا، موعد وصول الحافلة التى ستأخذنا إلى مكان لا أعرفه، قررت الولوج إليه بدافع المغامرة.

اليوم فقط اكتشفت أن "العقيدة" مفرد مؤنث فى العربية والفرنسية أيضًا، وأننا نمارسها بتلذذ يصل إلى نوع خاص من التلاحم نبلغ فيه الذروة ونحن بين أيدى الله نصلى إليه ونبتهل، وأن الكثير من البشر يتعاملون مع عقائدهم أقرب إلى الغرائز التى يجب إشباعها.

نعم فالغريزة أيضًا مفرد مؤنث، لم يتنبه أحد، ممن قرأنا لهم، أن العقيدة أنثى، وأننا نضاجعها بغريزة سعيًا للإشباع الوجدانى والروحى والنفسى، وأنه مثلما نرتاح بين صدور من نحبهم من النسله فإننا أيضًا نشعر بارتياح بالغ ونحن نرفع أيادينا إلى السماء نرسل إليها دعواتنا.

يا إلهى، حتى الدعوة أيضًا مفرد مؤنث!

لم أبعد عينى عنها ونحن فى الأتوبيس الذى يقلنا إلى المكان الذى

سيصلي فيه الجميع، بينما بدا سمير كأنه يحاول أن يأخذني إلى منطقته الخاصة ، والتساؤل يحيط بي :" ترى هل جاءت مارتا من جنوب إفريقيا خصيصًا من أجل أن تكون المرأة التي أبحث عنها ، وهل يمكن انتزاعها من بين هذه المجموعة كي ندخل أولاً في حوار اختلافي مشابه لما دار بيني وبين سمير ومجدى اللذين يحيطانى الآن بعد أن طلبا منى حضور صلواتهم هذا الصباح، بدافع المعرفة ؟ "

ترى هل جئنا لإثارة مثل هذا الحوار حول البحيرة، وأن نغلق أعيننا تمامًا عن التأمل فى خلق الله المتمثل فى شموخ الجبال الخضراء التى ترتدى ثوب الجليد طوال الشتاء،وفى هذا الجمال المتدفق، الحى، البارز فى كل ماهو مؤنث حول البحيرة، حتى الثرثرة (مؤنث) تبدو الوسيلة للتواصل بين الناس هنا، أحاطنى الشابان القادمان من الشرق العربى من أجل محاورتى حول مكانة العقيدة فى حياة كل منا . قلت :

- لماذا نفكر كثيرًا فى الآخرة ،ونحن لا نزال فى الدنيا ؟

رد مجدى : لأنها مصيرنا. الحياة نفق ضيق فى سبيله إلى الآخرة .

تمتمت فى أعماقى أنه لا نعمة إلا بالله. لايزال الشابان يحوطان بى فى الأتوبيس الذى يتحرك وسط مدينة أخذ أبناؤها إجازاتهم ورحلوا عنها إلى حمامات السباحة أو الجبال ، أو الريف من أجل الاسترخاء والتأمل. أما هؤلاء فيبدون فى مهمة رسمية للالتفاف حولى والاهتمام الشديد بى، والحرص على إطالة الحوار .

يا إلهى، الآلية لا تتغير وسط الذين يدعونك للاقتناع بجدوى أفكارهم، والذين هربت منهم دومًا وهم يسعون للالتفاف حولى وضمى لعالمهم ، منذ أيام الشباب الاشتراكى الذى أعطونه ملابس بنية ، وبزات أنيقة ، وأقاموا له المعسكرات قبل أشهر من الهزيمة، ثم الشباب الذين ملئوا المعاهد التى ترددت عليها وأقنعوا ذويهم بأن إطلاق اللحى ليس فقط رمزًا لانضمامك إلى صفوفهم بأن تكون واحدًا منهم . بل أيضًا رمز لطاعتك العمياء ، فلا تسل عن السبب ، قدر أن تستمع وتمتثل للأوامر الجديدة .

لم أكتشف آنذاك أن اللحية أيضًا مؤنث .

الآن فإن سمير ومجدى ، وأيضًا مارتا، وزميلتها التى جلست إلى جوارها يتبعون نفس الآلية ؛ محاولة إيهامك بأن مجرد الاقتناع بوجهة نظرهم يعنى أهمية حقيقية لوجودهم . قلت لسمير على سبيل الدعابة :

– لماذا تحركنا العقيدة جماعات ؟

بدا سمير كأنه قد حفظ عبارات بعينها، عليه أن يرددها بتنغيم خاص لزيادة قوة التأثير على من يسمعه، لكن هذا الأسلوب يبدو عقيما بالنسبة لى .

نزلنا عند محطة يعرفونها جيدًا ، صرنا قرابة ستة عشر شخصًا بعد أن انضم إلينا آخرون كانوا فى انتظارنا، يبدو أنهم لا يعرفون المكان الذى جاءوا للصلاة فيه جيدًا . قالت واحدة منهن بدت عربية الملامح :

– إنه هنا ، جئت من قبل .

حين دخلنا بدا المكان نظيفًا ، استقبلتنا ابتسامة ومصافحة رجل راح يبارك المؤمنين الذين انضموا إلى المكان فى هذه الساعة من الصباح، ودفعنا زحام إلى الدخول بينما حرص سمير أن يكون إلى جوارى، وهنا فهمت أننى واحد من المهام التى على سمير أن ينفذها ، وأنهم جميعًا لديهم مهامهم الفردية التى تجمعها فى النهاية مهمة تربط فيما بينهم، وهى استجلاب أكبر عدد من الذين عليهم الإيمان بما يفعلون .

أنا الوحيد المختلف هنا بما يؤمنون، ترى هل كان يجب الذهاب إلى مسجد لأداء الصلاة أفضل؟ لكننى أديت واجبى المقدس ، فصلاة الصبح لا تزال عالقة بى ، ولا أعتقد أننى سأمنحهم ما يريدونه ، حتى وإن حصل سمير على شهادة استحسان لمجرد نجاحه فى أن أذهب معهم إلى هذا المعبد الغريب .

المكان تملؤه روائح غريبة ، وموسيقى ،وطقوس غير مألوفة، أراها لأول مرة فى الواقع وإن كانت موجودة فى أفلام عن أصحاب العقائد غير المألوفة، مجموعة من نساء زنجيات تتمايلن نحو بعضهن كأنهن يرقصن فى

غابة مزدحمة الأشجار ويتماسكن بالأيدى، يغنين معًا على النغمات، ورجل يتحرك وسط النسوة وهو يمسك بدف يطرق عليه، من الواضح أنه حفل لموسيقى بدائية، يبدو أننى جئت إلى المكان غير المقصود.

فجأة رأيتها أمامى ، قالت "مارتا" :

– على فكرة . فوجئنا بغرابة المكان مثلك ، هذه الأشياء تتعارض مع أفكارنا .

كان سمير قد شرح لى الكثير من هذه الأفكار فى الأتوبيس . فالعبادات تقوم على العلاقات المباشرة بين البشر وبين الله ، والسماء ليست فى حاجة إلى وسيط، وفى أفكارهم فإن كل الوعاظ ليست لهم أهمية . قال مؤكدًا ما قالته "مارتا" :

– هذه أول مرة نأتى فيها إلى هنا .

بدا عليها الانزعاج الشديد حين قلت :

– هذه طقوس عبادة السحرة .

ردت وقد جذبنى وجهها الجميل : لا .. إنهم لا يمثلوننا .

من الواضح أنها كانت ترقبنى بحرص شديد وأنا أقرأ ما يحدث فى المكان الذى امتلأ بالمقاعد والبشر، والعازفين وشاشة تلفزيون، وأغنيات بدأت تتردد على الألسنة، ودموع الندم ورغبات فى التوبة عما اقترفوا من خطايا، يرقصون كأنهم فى حفل ديسكو راقص ، ورجل يبدو هندى الملامح، يقود الحفل الغنائى الجماعى بينما كلمات هذه الأغنيات مكتوبة بالإنجليزية على شاشة التلفزيون، لم أسأل نفسى عن حقيقة الدافع الذى جاء بى هنا ، هل هو معسول الكلام، ورقة سمير، وحرص مجدى أن أعرف حقيقة أفكارهم الغريبة، أم رغبتى فى البحث عن قصة (القصة مفرد مؤنث) حب فى هذه المدينة ، محاولاً محو شريط "ميليسا" من أجل الإبراء التام من مرضى الحاد بها .

أم أننى قبلت البقاء هنا لأننى وجدت نفسى فى حفل ديسكو راقص مهما كانت كلمات الأغنية التى تتردد، وإن كانت الشعائر التى يمارسونها

أقرب إلى ما يحدث فى صالات الرقص الليلية ، لم ألتفت إلى المكان الذى تقف فيه" مارتنا" لأعرف ، هل ترقص مثلى ، حتى لا أحرم فضولها فى متابعتى وأنا أندمج شيئًا فشيئًا وسط الأنغام ، لعلها تتصور أننى فى الطريق أن أكون واحدًا منهم.ومن الواضح أن همسًا يدور فيما بينهم حولى أن هناك مؤمنًا جديدًا يدخل عقيدتهم الغريبة .

يا إلهى ، كل هؤلاء المسنات يرقصن طوال ساعة ونصف، ووافدون جدد ينضمون إلينا ، ويملئون المقاعد الشاغرة ، نسيت خلالها كل الأسباب والأشخاص ، فحركة الجسد ، أسكرت جسدى ورأسى، وتملكتنى "الحضرة" الوحيدة التى حضرتها يومًا ، والنشوة تسرى فى جسدى ، والشباب الخارجون من لهو الدنيا إلى ثواب التدين قد حاولوا استرجاع أيام الشقاوة فراحوا يمازحون بعضهم بأصابعهم وهم يضحكون بأصوات تعلو الابتهال .

اكتشفت أيضًا لأول مرة أن "الحضرة" ، و"النشوة" : مؤنث .

اهتزت أجسامنا ساعة ونصف تقريبًا . بدا كل منا خلالها كأن السكرة خدرته إلى حدود لا يعرف مداها، لم ألتفت حولى، كنت أحس أن عينيها ترقبنى، فجأة قال موزع ألحان الأغنية الذى وقف أمامنا بالميكرفون يؤكد :

– سيداتى ، اليوم لدينا درس مفيد .. لدينا خطيب بليغ من هولندا .. جاء خصيصًا من أجلكم ، ولهدايتكم إلى الطريق الصحيح .

إنه مسرح استعراضى لا أكثر، صعد إليه الرجل الأصلع ببدلته السوداء، وقد تعمد أن ينزع رابطة العنق وقال :

– نهار سعيد على المؤمنين الجدد .

خشيت أن ينظر إلى ، لعله يقصدنى، حاولت الاختفاء عن نظراته الجوالة فى القاعة الواسعة محاولاً استكشاف جمهوره القادم إليه ، لم أجد أفضل من تلك المرأة المتدفقة أنوثة التى تجلس أمامى بعد أن انضم إليها ذلك الزنجى الفارع الطول مثلها وتبادلا التحية فى صورة قبلة سريعة قبل أن تتكاتف أياديهما وهما يقفان تحية للرجل الذى قال ممازحًا :

- لماذا نتعامل مع البشر على أنهم خطأة ؟ لا .. البشر دائمًا طيبون . لو أن واحدًا منكم شرير ، فعليه مغادرة القاعة .

لم تنتبنى الرغبة فى الخروج، فلا شك أننى الوحيد الذى لا أتبع ملتهم ، هـم الذين جاءوا ، مثل طلاب الصيف، من أنحاء متفرقة من العالم وتباينت ألوانهـم ، وأعمارهم ، ومستويات الأنوثة لدى النساء منهم . لكن جمعتهم الرغبة فى التوحد معًا وهـم يستمعون إلى الأصلع الشاب القادم من هولندا . الذى قال :

- حسنًا .. ليس من بيننا شرير ، لا .. اسمحوا لى أن أقول إننا جميعًا تنتابنا رغبات شريرة، والقادم منكم إلى هنا هو الشخص الذى تغلب فيه الملاك على الشيطان .. هل رأى أحد منكم شيطانه ؟

وقبل أن يرد على سؤاله كان قد وضع قناع الشيطان الذى أخرجه على وجه السرعة من جيبه ، فانطلقت الضحكات بدلاً من الفزع، وراح يتجول بين صفوف المؤمنين بما يقوله ، بينما شعرت بالسعادة لوجودى فى المكان ،فقد تغيرت طبيعته بسرعة من ملهى للرقص إلى ما هو أقرب إلى السيرك يدفع للهو والتسلية، فالرجل الذى وضع قناع الشيطان فوق رأسه قفز فجأة الوسط الجماهير؛ كأنه حاول إثارة الخوف فيهم ، لكنه أضحكهم كما يفعل المهرج .

اقترب أكثر منى ، تصورت أن أشعة مختلفة قد تخرج منى فتكشف ما بداخلى ، وحقيقتى ، فجأة قفز إلى عمود خشبى فى أعلى السقف بمهارة تعنى أنه بالفعل لاعب أكروبات محترف، راح يتمايل وسط همهمات المؤمنين ، وبدا أن الشىء الوحيد الذى ينقص المشهد ، هو أن يصفقوا له بحرارة، وأحسست كأن أنامل "مارتا" سوف تمس كتفى كى تدفعنى أن أتأمل وجهها الملائكى وهى تردد لى من جديد :

- صدقنى .. نحن لسنا هكذا .

بدا أن الهدف من الحضور قد تحقق ، وأننى رقصت بما فيه الكفاية ، وضحكت على المهرج ، ووجدت نفسى بين مجموعة من البشر ، وأنا الذى

أفتقد صحبة "ميليسا"، و"مارينا" فى المدينة ، لن تأتى"مارينا" قبل أن تحل مشكلتها مع الفيزا ، ولا أعرف متى ستصل طائرتها . "موريل"، لعلها الآن فى حمام السباحة كما تفوهت قبل يومين كأنها تدعونى أن أراها بالمايوه ، أو عارية الصدر . "كارول" ستذهب بعد ساعة مع حفيدها إلى حديقة الأطفال لتناول الطعام، وقضاء بعض الوقت الذى تمارس فيه عاطفة مفقودة .

"العاطفة" أيضًا : مؤنث .

إذن ، هذا هو المكان البديل الذى اختارنى ، يجعلنى أشعر بالحاجة الشديدة إلى أن تكون لى صحبة حيمة مثل هذا الزنجى الفارع الطول الذى تلامست يده الشديدة السمرة مع اليد الناصعة البياض للمرأة التى رمت برأسها على كتفيه، وراحا يستمعان إلى خطبة الرجل القادم من هولندا .

ما أحوجنا إلى صحبة، نحن فى حاجة إلى أناس نتحدث إليهم ، ترى هل دفعنى هذا إلى الحضور إلى هنا لتقبل المغامرة الغريبة التى طالت؟ ، التفت بعد ساعتين إلى مكانها لأرى هل أصابها الملل مما يردده هذا المهرج، من كلام مكرر عن علم وجوب خيانة شريك الحياة ، والإخلاص للشخص الذى تعيش معه، هنا دبت فى أعماقى كافة سمات من أعرفهم من المصابين بالتمرد، والشعور العميق بعبث الوجود، لكثرة ما سمعوا هذا الكلام . لم أجدها ، يبدو أنها غادرت المكان، وكانت لديها الشجاعة النادرة أن تفعل ذلك .

قررت أن أفعل مثلها ، يكفينى هذا الكم من التهريج ، وكلمات تعمق الإحساس بالعبث الشديد مما يردده الآخرون ، تذكرت جملة وردت على لسان امرأة عجوز فى أحد الأفلام :" لم أسمع الواعظ يغير من نبراته وعباراته طوال ثلاثين عامًا، إنه أشبه بالأسطوانة التى كلما أدرناها رددت نفس الأغنية " .

وأحسست أننى أعود إلى الحياة بعد الخروج من نفق أدخلنى فيه هذا المهرج الذى قلم بكافة ما لديه من مهارات أكروباتية .

وأسـرعت إلى الـبحيرة فـى مـثل هذه الساعة من النهار الذى انتصف، رددت فـى أعمـاقى أن خطباء المساجد فى صلاة الجمعة لا يستغرقون أجزاء مـن هـذا الوقـت الذى حاول فيه المهرج إقناع المتزوجين، أو العشاق بعدم هجران أو خيانة شركاء الحياة، من أجل بقاء الأسرة متماسكة .

المديـنة تـبدو شـبه خاويـة ، فـراغ يدهمـنى للفارق بين الصخب الذى سببه المهرج، وهو يقفز بين أعمدة سقف البناية ، وبين الخواء الشديد الذى يسـببه الصـمت القـاتل حـول الـبحيرة، "الجنة من غير ناس ماتنداس" ، الوحـدة تطـاردنى مـن جديـد ، والجـوع الـذى يستبد بـى يدفعنى للعودة للفـندق مـن أجـل الـتهام طعـامى الرخيص ، ورغبة مؤكدة أن أبحث عن "موريل" فى حمامات السباحة الموجودة فى المدينة، البحث عن "موريل" يحتاج إلى أيام عديدة، ومن الأفضل أن أروى لها ما عايشته حين تبدأ الحصة القادمة .

رويـت لهـا مـا عشـته صـباح اليوم التالى ، حين سألتنا بمودة شديدة عن الأمـاكن الـتى ذهـب إليهـا كـل منا فى أثناء عطلة نهاية الأسبوع ، أكدت "لاى"، وزينب ، و"كاتيا"، وكرستيان، أن كل منهم ذهب مع الأصدقاء إلى حمـام السباحة ، قالت "موريل" إنها كانت وحيدة فى حمام السباحة الواقع عند طرف البحيرة .

لعلها كانت على مسافة خطوات وأنا أبحث عنها .

لم تعـلق وأنـا أحدثهـا عـن الطقـوس السـحرية التى عشتها بالأمس، لكننى وددت أن أدفع برسالة سمير التى تركها لى فى الفندق .

" إلى أخى وحبيبى السيد المحترم ..

" هذه ثانى مرة أسأل عنك فى الأوتيل ولا أجدك

" اعذرنـى أنـى أحادثك فى النهار فقط، فأنت تعلم بعد الظهر نكون فى الخدمة جميعًا حول البحيرة .

" أولا أريد أن أعتذر منك على ذلك النهار . فأنا أول مـرة أذهـب إلى هناك ولست أعرف كيف هى عبادتهم "هم أحرار" ، لكننـى أحبيـت أن

أشاركك فى الاجتماع حسب طلبك ، وعندما خرجت لم أعلم أنك ذاهب، بل حسبت أنك خارج إلى الحمام ، وبعد أن خرجت أنت بخمس دقائق ذهبنا نحن أيضًا."

يا إلهى ، إنه بالغ الوضوح. هو فى مهمة عليه إنجازها ، يدعو الناس إلى عقيدته، وقد جاء إلى هنا مع مجموعات من الشباب المؤمنين بنفس الرسالة من أجل تحقيق نفس الهدف، إدخال المزيد من المعتنقين الجدد إلى الزمرة، ففى ذلك خير لهم وزيادة تعضيد لعقيدتهم .

كل هؤلاء البنات الجميلات ، وأيضًا الشباب جاءوا من أنحاء متفرقة من العالم من أجل الخدمة. ولأول مرة أكتشف أن "العبادة أنثى" وأنه من أجل ممارستها يجب الولوج فيها بالروح، والتوغل فى أحشائها إلى اللامنتهى حتى يمكن ممارستها على أفضل ما يكون عناق الروح بما تقدس ، ترك سمير مع الرسالة شريط فيديو، وشريط كاسيت ، وكتيبًا صغيرًا من أجل التعرف على أفكارهم ، وكيف يفكرون .

يا له من عالم غريب !

وضعت الشريط فى جهاز التسجيل ، ورحت أسجل عليه أغنيات من محطة الأغنيات القديمة ، التى تبث أجمل ما يمكن أن يتسرب إلى وجدانك من أغنيات، تمددت فوق سريرى الصغير المطل على أكبر ساحة فى المدينة ، وقد بدت البنايات المتوسطة الارتفاع أمام عينى، حاولت التأكد .. أية بناية يسكن فيها هؤلاء العباد الشباب الذين يؤمنون إلى درجة التقديس المتناهى بأن يضموا المزيد من المعتنقين إليهم .

جاءوا إلى هنا فى معسكر عمل من أجل مهمة مقدسة، صبيانًا وبنات، الكثير منهم متزوج فى بلاده، لكنهم يرحلون حول العالم إيمانا بنشر رسالتهم ، كم بدت كلمة" الخدمة" فى مكانها رغم ركاكة الأسلوب الذى كتب به سمير الخطاب،الدعوة التى جند من أجلها الشباب والبنات البالغات الحسن على السواء، ترى من تكون "مارتا" حقيقة ، هل تخفى شخصًا آخر غير بنات هذه المدينة وراء بساطتها وجمالها الأخاذ كأنها واحدة

من نجمات السينما؟

فجأة طرق باب غرفتى لأول مرة منذ أن هبطت إلى المدينة. رأيت شابين أمامى ، بعد أن فتحت الباب ، يرتديان زيًّا رسميًّا أشبه برجال الشرطة، لابد أننى فعلت شيئًا فى منظور هذين الشرطيين فى مدينة لا تكف أن تسمعك كل دقيقة أصوات سارينات عربات الشرطة ، والإسعاف :

- أى خدمة ؟

مد لى أحدهما، الأكثر طولاً من زميله العملاق ، بطاقته :

- نحن من مؤسسة " الخير الأبدى " الأمريكية .

قرأت اسمه على البطاقة التى يعلقها على صدره مثلما يفعل زميله ، سرعان ما فهمت المقصود ، سألنى :

- هل يمكن أن نتحدث معك قليلاً ؟

يودان الدخول فى ثرثرة لن تجعل أحد الطرفين يقتنع بعقيلة الآخر، انتابتنى حالة العبث التى أصابت روكنتان فى " الغثيان" . لم آت هنا من أجل مناقشات لا مجدية، من الواضح أنهما من طراز سمير ومجموعته، لكنهما يرتديان الزى الرسمى للخدمة، قلت :

- معذرة . عندى موعد .. يجب أن أذهب إليه .

قال العملاق الأقصر طولاً : يمكننا أن نأخذ موعدًا للحوار .

- قد أرحل غدًا .. أو بعد غد .

- نأتى لك هذا المساء .

- قد أعود فى منتصف الليل ، أو بعد ذلك .

بضحكة جاملة قال الأطول : ما أحلى الحوار بعد منتصف الليل .

قررت أن أحسم الأمر :

- اسمعا يا صديقىّ ... قرأت من كتب العقائد البشرية منذ بدء الخليقة ما يجعلنى أدفعكما لمراجعة نفسيكما فيما تودان التحاور فيه .

بنفس الضحكة المثلجة قال : رائع، هذه بداية رائعة للدخول فيما نريد

قلت له بلغتى مازحًا بما لم يفهم :

– أنت تريد ، وأنا أريد والله يفعل ما يريد .

وانطلقت نحو السلم، لم أشعر أننى هارب من معركة كان يجب أن أخوضها ، فقد تكررت مثل هذه المواقف أكثر من مرة مع شباب حاولوا دفعى للنقاش حول أن إطلاق اللحية هو رمز للتدين، فكان الرد أن رجال الدين فى الكثير من العقائد يطلقون اللحية ، ومن الصعب ، فى الكثير من الأحيان التفرقة بينهم .

الجميع يستخدم نفس الآلية ،والأسلوب، حتى وإن كانوا أصحاب عقائد غريبة مثلما قابلت فى المدينة .

وانطلقت إلى المدينة ، لكننى تجنبت الذهاب إلى البحيرة، وتعمدت العودة بعد منتصف الليل بساعة حتى لا أجدهم يتربصون بى أسفل الفندق ، فمن الواضح أن ما قلته فتح شهيتم لأداء مهمتهم على أحسن وجه : أن أدخل فى زمرتهم ، أيًا كانت أفكار عقائدهم .

لكن كان هناك من ينتظرنى فى الطريق المظلم وأنا عائد فى منتصف الليل إلى الفندق :

– مساء الخير .

– أهلاً .

– أنت من أمريكا اللاتينية ؟

– لا .. أنا مصرى .

– رائع أنت تتكلم اللغة العربية ؟ عندى لك هدية باللغة العربية ، أنا فرانك .. أمريكى .

– أهلاً .

وقبل أن أتساءل أى نوع من الأسئلة ، أخرج لى صندوقًا من حقيبته القماشية، ترى هل هو بابا نويل يوزع هدايا الصيف على سكان المدينة فى هذه الساعة من الليل ؟ سرعان ما عرفت الإجابة وأنا أرى نفس الشرائط التى تركها لى سمير ، رددت فى داخلى : "حسنا .. عندى شريط جديد لأسجل عليه الأغنيات القديمة" . سألته :

- هل تعرف مارتا ؟

هـز رأسه بالنفى ، مما دفعنى للتساؤل إذا كانت مارتا وسمير ومجدى أسماء مستعارة لأشخاص جاءوا هنا من أجل أداء خدمة مقدسة. بدا كأنه متأهب لكـل مـا عـليه أن يفعله، بدا لطيفًا فى كلامه مما جعلنى أفضل محاورته فى الشـارع المظلم عن العودة إلى الفندق لأجد الشابين عضو "الخير الأبدى" فى انتظارى .

مـد لى بكتيب صغير باللغة العربية قرأت على غلافه "أعمدة الخلاص السبعة" وقال : هل تفهم هذا ؟

- يجب أن أقرأه أولاً .

- رائع .. اقرأ ولنتناقش .

- شكرًا .. سوف نتقابل .

بـدا كأنـه يعـرف كيـف يجدنـى، غدًا أو بعد عدة أيام مثلما عرفت من لقائنا الـتالى ، فى نفس السـاعة من الليل، رأيته يقف تحت الشجرة ، كأنه يتربـص بصـيد يمنحه هديـته ، وقـال : أهـلا يـا صديقى ، أنا فرانك . هل تذكرنى ؟

- طبعًا .

- هل قرأت .. هل سمعت ما بالشريط ؟

كذبًا قلت :

- طبعًا .

- هل نتناقش ؟

- لا مانع .. نحن الآن فى منتصف الليل .

كـان يتابعنى بخطواتى السريعة إلى أن خرجنا إلى الميدان، لحتهما كأنهما تنتظران أن تريا ماذا سيسفر لقائى به. قال : تعال أقدم لك زوجتى .

فـى لقـائى السـابق معه ،فى نفس المكان حدثنى عن زوجته، تبدو ذات بشـرة بيضـاء لكـنها تفـتقد حسن" مارتا" ، كما أن الفتاة التى تدفع معها عربة الوليد تبدو ذات جمال شرقى لم يلفت أنظارى طويلاً . قلـت للزوجة

"ماريا" على سبيل التودد :

- سيدتي ، أخبرني زوجك منذ أيام أنه كان ضالاً فاسقا وأنك بحبه لك أخرجته من الظلام إلى النور .

ابتسم "فرانك" في امتنان كأنه يؤكد : "فعلاً .. هذه حقيقة" .

كان قد حكى لي عن التحول الحقيقي في حياته عندما التقى بماريا ، لم يكن أكثر من شاب يشرب الخمر، ولا يكف عن تعاطي كافة أنواع المخدرات ، وما أن دخلت حياته حتى انقلب تمامًا ، واكتشف الروح النقية، والصفاء الأبدي ، فعلمته كيف يترك جسده الفاني إلى الواقع ،وأن يهرب معها إلى عالم الروح الباقية، ودفعته ببطء إلى أن يتحول إلى داعية لهذا النوع من الإيمان ، ترى هل يمكنني أن أصبح واحدًا منهم لو دخلت "مارتا" حياتي وقلبتها رأسًا على عقب ، وهل من مهام مارتا أن تدخل حياة رجل فيفتن بها ، وتحوله إلى داعية لعقيدتها الخاصة التي تجد أتباعا مستعدين أن يفعلوا مثل "ماريا" و"فرانك"، أن يتربصا بالمارة في الليل من أجل منحهم أشرطة وكتبًا مطبوعة بلغات عديدة من أجل كسب المزيد من المعتنقين ؟

حتى الآن فالأمر لا يتعدى أن يكون لعبة ، أو مزاحًا، ولا يمكن التعامل بجدة مع كل هذا اللطف الذي يبديه فرانك وزوجته ، بل إن المرء لا يملك سوى الاحترام لعائلة تخرج في مثل هذه الساعة من الليل ومعها ابنها الرضيع وسط البرد، من أجل البحث عن مقتنعين جدد ، مهما كان نوع الأفكار وإيمان الذين يقدمانه في وجبتهما .

لم يكونا يعرفان سمير ، ولا مجدي ، أو مارتا. رغم أنني فهمت أنهما يسكنان نفس المنزل أو الفندق المخصص للمنادين .بدا كأنه وجد ضالته وهدفًا مقدسًا في الحياة ، لا يمكن لأحد أن يرفض هذا الاتجاه المقدس إلى التعبد المقترن بتغير واضح إلى الأفضل في السلوك. يعود العالم إلى الفضيلة خاصة في وسط مدينة يتهمونك فيها بالتخلف لو أبديت اشمئزازك من الشابين المتعانقين كأنهما العاشقان ، بدت الأسرة متحابة

مستقرة ، كأنهما عنوان حقيقى على التوازن الذى حل بالشاب بعد اللقاء بماريا ، من الواضح أن التغير الذى حدث كان انقلابًا صادقًا تمامًا بالنسبة له ، فما الذى يدفع بشاب وسيم أن يترك متاعًا زائلاً ، وأن يخرج للدعوة بما تؤمن به الأسرة فى مدينة لا تعير الكثير من هذه الدعوات اهتمامًا ؟! لكن تحوله، حتى لو من خلال امرأة يمكنه أن يكون بابًا ضيقًا ومؤكدًا للدخول فى الزمرة .

عند الميدان المجاور لباب الحديقة استودعت الجميع، قبل أن يقول "فرانك" :

– لا تنس قراءة الكراس ، نريد النقاش .

واستطاع بلطف ، وذكاء، أن ينتزع منى موعدًا للقاء فى الحديقة التى نتودع عندها فى السابعة من مساء النهار الجديد .

فى السادسة جاءنى "بيير" لزيارتى فى الفندق مندهشًا من جديد من الهدية الفرعونية التى استجلبتها من الوطن وقدمتها له ، بدا فارع الطول، وهو يحمل معه خوذة الدراجة البخارية الضخمة التى يقودها. قلت فى ارتباك ، ونحن نجلس فى المقهى المجاور للفندق :

– هل تأتى معى إلى موعد سريع نقضيه فى الحديقة ؟

أبدى "بيير" الكثير من الحماس للذهاب إلى الحديقة عندما أبلغته بهوية اللقاء ، و"فرانك" ، مرددًا :

– قليلاً ما ألتقى هنا بمثل هؤلاء .

يا إلهى ، كم أشعر أن المدينة مليئة بهم كأنه لا يسكنها أحد سوى من ينادونك عند البحيرة ، أو يوزعون عليك الهدايا وهم يتربصون بك فى منتصف الليل . وبعد قليل كان" فرانك "يقترب منا فى مكان اللقاء، غريب فعلاً أن كل منا قد اصطحب معه شخصًا آخر على غير الاتفاق، بدا رفيقه بالغ الأناقة وهو يصافحنا ويعرف نفسه :

– نافع .

حدثنى مباشرة باللغة العربية، بينما ردد "فرانك" ، كأنه يدخل فى

الموضوع مباشرة دون مقدمات :

- هل قرأت ؟

لم تكـن هـناك حاجة للفراسة من أجل فهم الموقف ، إنه يحاول هدايتى إلى طريقته بأسلوب مضمون ، فى أن يأتى إلى بشخص يتكلم لغتى ليكون الحـوار واضـحًا، بـدا نـافع، إذا كـان هـذا هـو اسمه الحقيقى، متكلفًا يفتقد البسـاطة والألفـة المـتوفرة فى زميله ، وهو يسألنى : هل استوعبت المفاهيم السبعة فى الكراس ؟

هـززت رأسـى بثقة بينما بدا فرانك كأنه يقرأ ملامح وجهى ، وتأهب "بيير" لاقتحام الحديث عند أقرب جملة :

- ما رأيك فى هذه المفاهيم ؟

- ما رأيك أنت ؟

- إنها ناموس حياتى .

- اسمع يـا صـديقى ، أنـا مسـلم كمـا تعـرف، ولا أريـد أن أدخل فى حوارات حول الأديان، فالمسيحية أيضًا تؤمن بما جاء فى مفاهيمكم ، وأيضًا بقية الأديان السماوية وغير السماوية .

شـرحت لـه أنه من الصعب إقناع شخص قرأ الكثير عن عقائد البشر بأن يؤمن بسهولة بمفاهيم سبعة مأخوذة من كتب السابقين دون أن تتضمن الجديد باعتبار أن الكلام عن الخير دائمًا مجرد محاولة للتخلص من الشرور الـتى نرتكـبها، والآخـرون أيضًا ، فجأة انتفش واقفا وراح يتحدث باللغة العربية كأنه درس فى النصوص حفظه جيدا ويجب أن يلقيه :

- اسمع يا أخى .. لقد جئتك بالخبر العظيم .

استرعى انتباهى " الخبر العظيم " الذى أتانى به ، قال :

- نحن نقدم لك فرصة أن تتخلص من كافة آثامك .

- لـماذا تعاملونـنى عـلى أنـنى شـخص آثم ، أنا لا أحرص على الإثم مهما كان نوعه .

وعددت له كافة الآثام التى لم أرتكبها طيلة حياتى :

- لعلنى ارتكبت بعض الخطايا الصغيرة، لكننى لم أكن آثما يومًا .

أراد أن يكرر عبارته المحفوظة فوق أسطوانته مجددًا ، وقال :

- يا أخى .. أبشر فأنا قادم لك بالخبر العظيم .

بدا غير مقنع، ولا يجيد سوى تنغيم كلماته من أجل أن يترك تأثيره على من يستمع إليه ، مثلما يحاول البعض فوق المنابر من أجل زيادة التأثير، لم أود أن أقول له إن العالم ليس فى حاجة كل يوم إلى عقيدة جديدة من تلك التى نقرأ عن خلاص أصحابها من وقت لآخر هربًا من الحياة الفاسدة، كان "بيير" قد دخل فى حوار ساخر لم أتبينه وأنا مهموم بالعثور على عبارات لا تشكل صدمة لشخص آمن بأن رسالته هى ضم السذج مثلى إلى عشيرته، سأل :

- هل تعرف إلى أين المصير بعد الحياة ؟

- يؤمن جميع البشر بأنهم فى طريقهم إلى عالم آخر يؤدى بهم إما إلى الفردوس وإما إلى السعير .

- وأنت ؟

لا أعتقد أننى سوف أكون معكم فى نفس الفردوس .

فجأة تقهقر "فرانك" إلى الخلف وقد تحول وجهه القمرى الناصع البياض، إلى كتلة نارية من الغضب، وأشار إلى "بيير" بإبهامه ، ثم همس إلى نافع الذى سرعان ما تغيرت سمات وجهه ، تأكدت أن شيطاناً ركب فرانك ، وسرعان ما لبسه ، فبدا شخصًا مختلفًا عن الذى قابلته فى ضواحى الميدان أكثر من سبع مرات، تقهقر الاثنان إلى الخلف، وهما يسبان" بيير" بلغتهما،وهو لا يكف عن الضحك، والسخرية ، لم أفهم ماذا حدث، بدا الرجل ذو الخوذة الكبيرة كأنه قال شيئًا جسيمًا، سألته وهما يختفيان فى أطراف الحديقة : ماذا قلت له؟

رد ببساطة :

- أخبرتهما أننى يهودى !

الأنثى الخامسة

إنه مؤنث ، خاصة باللغة الفرنسية .

حلم السباحة الذى قابلت "بيير" عنده لأول مرة مصحوبًا بامرأته التى تمددت أغلب الوقت عارية ، وتركنى زوجها النائم أتطلع بحرية إلى الجسد العجوز لزوجته ، أو فلنقل للمرأة التى تجاوزت الأربعين التى كانت فى رفقته .

كانت موريبل أول من أثار انتباهى إلى حمامات السباحة الكثيرة المنتشرة فى المدينة، وهى تسألنا فى اليوم الدراسى الرابع عن المكان الذى سنقضى فيه عطلة الأسبوع ، رددت لاى الصينية : "حلم السباحة" .

وكررت نفس المكان أكثر من فتاة يعرفن المدينة جيدًا ، وتعمدت أن أسأل موريبل :

– وأنت ؟

وجاءت نفس الإجابة ، وفى صباح يوم العطلة كان السؤال الذى طرحته على جارى البرتغالى الذى التقيه فى طريقى ونحن بالفندق أكثر من عشر مرات :

– أين حلم السباحة ؟

ضحك ساخرًا ، ورد :

– حمامات السباحة فى هذه المدينة أكثر عددًا من الشوارع .

راح يصف لى أقرب حمام سباحة يقع على قرابة الفندق، لكن سؤالى التالى الذى طرحته على عجوز بدت كأنها تعرف كيف تقضى إجازة نهاية الأسبوع وحيدة :

– أكبر وأجمل حمام سباحة يقع خلف النهر الصغير ، يوم سعيد .

مشيت فى مدينة هادئة غير متصور أن أحدًا يقيم بها فى مثل هذه الساعة ، حتى لو كان الناس نيامًا فى بيوتهم ، لكن ما أن دفعت بالتذكرة لعامل البوابة حتى رأيت فردوسًا خياليًا أمام عينى ، دائرة واسعة من الأشجار، وعديد من حمامات السباحة متباينة الأشكال والأحجام ، وخضرة وحياة متدفقة يصنعها الأطفال والنساء ، عند الصدمة الأولى لا يمكن للعينين أن تعرف هوية الشىء بشك محدد ، مثل ضرير تفتحت عيناه فجأة دون سابق إنذار فرأى أمامه ضيه لم تتحمله العينان الغارقتان فى الظلام فأغلقهما من جديد غير مصدق ، أو مستوعب لما حوله ، ويبدو أنه فى حاجة إلى وقت طويل لمعرفة هوية المكان .

إنه أقرب فى اتساعه إلى النادى الأهلى بمدينة نصر، لكن هناك فارقًا كبيرًا بين الاثنين، فالمكان هنا لكافة الناس ، يمكنهم بما يقارب الجنيهات الثلاثة الدخول ليوم واحد . وهناك اشتراك شهرى، والناس هنا تتصرف على سجيتها ، فليست هناك مقاعد وموائد للجلوس من أجل الثرثرة، كما أن الناس هنا فى بهجة حقيقية، إنهم يعيشون لحظاتهم ، يتمددون فوق الحشائش الخضراء ، تكاد لا تكون هناك مسافات فيما بينهم ، لكنهم لا يحسون بأى ازدحام بالمرة، تخلو أعينهم من البص، أو التنصت على الآخرين .

يا إلهى لقد جاء إلى هذا المكان واحد من محترفى البص فى بلاد البصاصين الكبار، عليه أن يصدم بما يرى ، وأن يتعامل كشرقى محروم ، فى بلاد تقنن أن موازين الحرام تبلغ عشرات أضعاف المحللات .

وأنا أبحث لجسدى عن مكان مناسب ، كان كل همى أن أستطيع من خلال المكان أن أبص على كل النساء المتمددات عاريات فى استرخاء تام تحت الأشجار وحول الحمامات الكثيرة ، تداعى إلى عينى ماحدث فى حمام الفندق الصغير بمدينة أغادير قبل عشر سنوات ، فى موقف مشابه ،حين صدمت عيناى عاريات الصدور فى الحمام ، فقلدت نفسى كبيرًا للبصاصين أعوض المحروم فى داخلى ، لكن السؤال السخيف الذى جعلنى أغادر

المكان مأسوفًا على حالتى المتدنية :

– لقد تأملت .. وشاهدت ، وبصصت. فماذا بعد ؟

لم تكـن هناك إجابة ، ولم أعد إلى الحمام ثانية بنفس البصاص الذى فى أعمـاقى ، يـبدو الموقـف الآن كأنـه يـتكرر، لكـنها الصـدمة الأولى التى لا تسـترعى انتباه أى من كل هذا الزحام العارى المتمدد فوق الخضرة ، رجالاً ونساء وأطفالاً. المكان الذى افترشت فيه فوطتى البيضاء ، وإلى جوارها سلة أطعمـتى ، وكتابًا يقضى على إحساسى المنتظر بالملل ، يبدو الأنسب لرؤية أكبر عدد من العاريات المتمددات .

يا إلهى ، هؤلاء الناس يعشقون أجسادهم ، معذرة ، هؤلاء النساء يتعبدن فى أجسادهن ، يدللنها ، ويقمن بتغذيتها، ويعطين للجسد كافة ما يمكنه أن يكتسـب المـزيد مـن الرونق، فهمت سر تمدد العجوز بلباس البحر ظهيرة كـل يـوم مشـمس فوق أرضية سطح الفندق ، فالعاريات هنا من الشابات والعجـوزات أيضًـا ، يسـلمن الجسد لأشعة الشمس ، ومن أجل التناسق يـتحررن مـن مشدات الصدر، دون أن يأخذن فى البال أن البصاص الأكبر قـد شـحذ عيـنيه لالـتقاط أكـبر قـدر مـن العـرى المتاح وهـو يخفى عينيه السـارقتين لحدود أجساد الآخرين، بالتأكيد ليست هناك واحدة تعرف أننى هـنا ، وأنـنى سيّئ النوايا ، وإلا قامت بتغطية جسدها الفاتن مثلما فعلت أمها الأولى حواء بعد أن تناولت من شجرة الشعور بالخطيئة، هؤلاء النسوة نـزعن الإحسـاس بهـذه الخطيـئة عن أجسادهن وراحت كل واحدة منهن تدلـل جسـدها ، الرمز الحى والأبدى لما منحها الله من أنوثة ، فراحت كل منهن تدلله على طريقتها، أو بكافة الطرق .

قـامت الحسـناء ذات لباس البحر الأحمر بتغطية صدرها ، لعلها أحست بالـزنا فـى عيـنى ، لكـن من الواضح أنها تبحث عن وسيلة أخرى لتدفع الجسـد بالرضـاء، تتـبعت عيـناى جسـدها الممشوق ، تتحرك بين العاريات حتى بلغت الحمام ، وقفت أسفل دش قذفها برشاش ماء ، ما أن هبت أشعة جسـدها أسفله . ثم وقفت عند حافة الحمام ورمت بنفسها فى المياه المشمسة

بقفزة رائعة وغابت أسفل السطح قبل أن تبرز من جديد عند الطرف البعيد للحمام .

قبل أن أتابعها استلفت نظرى تلك المرأة ذات الملامح الأسيوية التى وجدت لها مكانًا مناسبًا على مسافة قريبة منى ، بصحبة زوجها وابنها الصغير، ما أن جهزت المكان للإقامة حتى تصرفت بتلقائية شديدة ، وهى تنزع ملابسها ، بدا الصدر الصغير كأنه لطفلة تعرف شكل الأنوثة لأول مرة ، بينما لم يلحظ زوجها عينى البصاصتين غير مصدق أننى قد رأيت طرفًا من عانة زوجته التي قامت بسرعة بتغيير ملابسها وارتدت لباس البحر الأخضر قبل أن تلقم ابنها فى عربته الصغيرة بزازته، وتقبل زوجها الذى راح يتحسس جسدها فى حنان ملحوظ يشعر كافة البصاصين بالخجل ، الناس هنا تخلت أجسادها تحت الشمس عن الإثارة الجنسية ، ووجدوا فى الاسترخاء شعورًا بديلاً عن تلاصق الشهوة بين رجل وامرأة .

لم تر عيناى الرجال الكثر الذين جاءوا فى صحبة نسائهم وأطفالهم بما يوحى أن الحياة العائلية هنا ليست مفككة بنفس المنظور الجاثم فى ذهنى البصاص، صحيح هناك بعض النسوة الوحيدات مثل صاحبة اللباس الأحمر التى خرجت لتوها من حمام السباحة بعد دقائق قليلة بدت فيها كأنها تبلل جسدها قبل أن تعود إلى مكانها وتتمدد من جديد وتنزع مشدها كى تستكمل تغذية هذا الجسد البرونزى بالمزيد من أشعة الشمس ، وتستكمل التظلم الغذائى بأن تلتهم عيناها صفحات رواية . وبيدها اليسرى راحت تقضم ثمرة خوخ كبيرة .

ألم أقل إن المرأة هناك ليس لها من اهتمام سوى أن ترعى هذه الهبة السماوية الثمينة،الجسد،بأن تعطيها كافة أنواع الغذاء المعروفة والمتاحة ؛ أشعة الشمس ، وقبلات سريعة مع الرفاق، وثمرات فاكهة ، أو شطائر .

هناك أحاديث مختلفة بين الناس هنا ، إنهم لا يثرثرون كما يفعل أقرانهم الجالسين فى كافة أماكن النادى الأهلى .

تجسدت وحشتى الشديدة بالوحشة ، وشعرت بمدى حاجتى إلى صحبة ،

ترى أتأتى موريل إلى هذا المسبح ، أم أنها ترتاد مكان آخر وسط المدينة كما فهمت من كلماتها فى أثناء الدرس؟

ترى لو جاءت مارينا إلى المسبح وفعلت مثل الباقيات ، إلى أى حد سوف تلفت أنظار الآخرين وهى فى عينىّ المرأة التى اختلست لنفسها نصف الأنوثة ، ونثرتها فى أركانها الجسدية والمعتوية غير العادية ؟

ياله من مكان شديد الوحشة ، يطأ أكثر فوق كاهلى وأنا غير قادر على التواصل مع أى من هذا الزحام المنتشر حول جسدى وروحى ، فتتوه كلمات الرواية التى أحاول قراءتها وأفشل تمامًا فى متابعة الأحداث ، أو أن أصبح واحدًا منها .

وهل يمكن لامرئ أن يتفاعل مع حكايات فوق الورق ، وأن يهمل كل هذا الجمال الحى المتحرك من حولى ؟

واكتشفت لأول مرة أن "حكاية" و"قصة" و"رواية" مؤنث ، وأننا حين نقرؤها فإننا نضاجعها، نتلامس مع الخيال والشخصيات فيها ، ونتوغل ، وقد نتأوه بتلذذ ، فنصل إلى ذروة ذات إحساس خاص ومتفرد ، حتى تنتهى الصفحات فنضع الكتاب جانبًا ، وقد أتينا وطرنا .

لكننى الآن غير قادر على مضاجعة هذه الرواية ، بدوت أقل ذكورة وأنا أحاول اختراقها حتى وإن لم تفتقد الإثارة ، وإن افتقاد الذكورة لا يصيب المرء فقط فوق الفراش ، بل أحيانا فى مسبح ، يصعب فيه على أمثالى متابعة الولوج فى الرواية .

لكن ، هؤلاء النسوة يمكنهن مضاجعة الروايات بسهولة دون أية متاعب ، خاصة الفاتنة المتمددة أمامى التى تقرأ فى رواية حديثة تاليف ايزابيل الليندى .

تعرف النسوة هنا كيف يقضين وطرهن من أشياء كثيرة ، فيستمتعن قدر رغبتهن بالحياة .

"الحياة"

إنها المؤنث الحقيقى من حولنا ، وتبدو كافة "أفعال الحب" التى نعرفها

ونمارسها مع النسله بالغة البلاغة ، والتجسد ، نحن نلج فى دروبها نبدو فى قمة التلذذ ونحن نمارس فضائلها ، ونزقها، ونشعر بالذروة التى عليها أن تتجلد حين نكسب أموالها ومناصبها فلا تعرف رغباتنا فيها الشبع ونشعر أنها الأنثى الأولى التى تمتلكها ونحن نغير جلودنا ونسلءنا ، وأصدقاءنا ، وأهلنا ، حتى أبناءنا .

بدت الرجولة والوسامة واضحة على جارى الشاب والشعر يغطى صدره ، وهو يلعب إحدى لعبات الذكاء مع ابنه الذى خرج من المسبح لتوه ، وسرعان ماادخل فى حوار معى بعد أن انطلق الابن مع أمه عائدين إلى حمام السباحة :

- لا لست مصرى الأصل .. أنا مغربى .. أقيم هنا منذ سنوات طويلة .

- ابنك شديد الذكاء ، لاحظت أنه يغلبك .

ضحك بقوة ، وردد :

- آه .. ماركو.. هذا هو جيل اليوم .

- هل تعيش فى المغرب ؟

- أخبرتك أننى أسكن هنا منذ سنوات . زوجتى مغربية ، هى التى تتكلم العربية ، أما أنا فقد نسيتها .

وضحك من جديد ضحكة لم أفهم معناها ، ثم قدمنى لزوجته التى عادت مجددًا من المسبح :

- أهلاً .

ترتدى لباس استحمام تقليدى، وليس فى نيتها أن تبرز صدرها إلى الشمس ، من أجل صبغه باللون البرونزى. أخرجت لماركو قميصًا عليه نقوش فرعونية أحتفظ به فى حقيبتى الصغيرة :

- هذا قميص صغير من عبق مصر .

رد ممتنًا :

- لم أزر مصر .. لكننى أتوق أن أفعل ذلك

لم يصدق أننى أقدم له القميص هدية بعد دقائق من أول جملة نتبادلها .

شكرني ماركو، وراحت أمه تدعوني إلى تناول شطيرة أعدتها مثل النساء الشرقيات في منزلها قبل الخروج للتنزه ، أشرت إلى سلتي المليئة بما جعلني أمكث في المكان يومًا آخر ، أحسست أنهم يبلدون وحشتي ، فطوال الساعات السابقة وعيناي وحدهما تتكلمان إلى الأجساد المتعرية ، وإلى صفحات كتاب لم أعرف عم يتكلم، وإلى مايشبه الفردوس حسبما تم وعد المؤمنين به، لكن هل ستكون النساء هناك بنفس الجمال والانتشار؟

لكن مالبثت أن عدت إلى القراءة الكاذبة بعد أن انشغل المغربي سابقًا، بأسرته ، وانسحبت خارج المكان وسط المتمددات فوق النجيل . يشرن عيني ، غير ملتفتات إلى من هم على شاكلتي .

وعندما خرجت إلى المدينة شعرت بمن خرج من الجنة ، وأن المدن مهما كان بهاؤها، فهي لا تتعدى أن تكون بنايات يختبئ بداخلها سكانها لممارسة تفاصيل حيواتهم الخاصة .

قلت بفخر شديد لوربيل عندما سألت طلابها عن المكان الذى قضوا به عطلة نهاية الأسبوع : حمام السباحة .

ولأول مرة أتأملها كأنثى وأتخيلها متمددة بجسدها النحيل غير الجذاب جنسيًا ، وسط الأخريات في حمام السباحة، بل سرعان ما تتابعت صور البنات اللائى رحن إلى المسابح المنتشرة فى المدينة مع الرفاق والرفيقات وقد سبحن تحت أشعة الشمس يأخذن أكبر قسط منها . بالتأكيد أن رؤية كل من لاى ، وكاتي ، وزينب ، وباتي ، وليليان ، وكاترينا ذات وقع مختلف عن رؤية أجساد الغرباء ، لكنني بالتأكيد لن أبص عليهن لو كن إلى جوارى أسفل الشجرة التى لم تشاركنى شعورى التلم بأننى أقرب إلى آشنباخ فى رواية "الموت فى فينسيا" .

وعندما خرجت إلى المدينة التى عادت النساء إليها عقب الدروس، أحسست أن رغبتى السابقة فى التعرف على فتاة قد فترت، وأن المدينة منحتنى فرصة لرؤية العشرات كما لم أتمن، بطريقتى الخاصة ، فقد رأيت فى الحلم ماهو أقوى ليجعلنى أبص للنساء المارات فوق الأرصفة ، فماذا

سترى عيناى أكثر؟

وهـنا فقط فهمت سبب اختفاء داء البص فى مثل هذه المدن ، يكفى أن ترى ماشـاهدته بـالأمس كى تصيبك العفة ، ويمكن للمرء أن يذهب أكثر مـن مـرة ليشفى تمامًا من الداء ، لكنه ليس داء فى حاجة إلى دواء، حتى لو كـان إتيـان الوطر ، بل هو غريزة، نعم البص غريزة شرقية ، فما أن تبلدت إشـعاعات أجسـادهن مـن ذاكـرتى حـتى انتابتـنى الرغبة فى الذهاب مرة أخرى إلى نفـس المكـان ، مـن أجل إشباع هذه الغريزة التى قد لا تختلف كثيرًا عن الشبق الذى يستبد بنا من أجل إشباعه .

رحـت أبحث عن مكان آخر يسبحون فيه ، خاصة على شاطئ البحيرة ، واشـتريت تذكـرة الدخـول بـثمن أقل ، وبدأت أبحث عن المكان الأنسب للتملد وسط أكثر النسوة حبًّا لأجسادهن ، ورغبة فى صبغه بالبرونزية .

ليـس صـحيحًا أنهـن جميعًـا يشـغفن بهـذا الفعـل ، لكـنهن جميعًـا لا يتصـورن أن آخـر قـد تسـلل بينهن فقط من أجل رؤية مفاتنهن معروضة تحت الشمس ، بلا ثمن للفرجة ، وأن أى عاقل أو مجنون قام بممارسة البص دقـائق معـدودة ستكون لديه الرغبة فى استكمال هذا الفعل الفاضح طيلة الوقت الذى بقى فيه على شاطئ البحيرة .

وفـى هـذه المرة انشغلت عيناى بالتطلع إلى الجبال الخضراء التى تغلف المديـنة ، وإلى مياه البحيرة حيث تنطلق الزوارق حاملة فوقها الباحثين عن مـتعة مـن نـوع آخـر ، واكتشفت معنى مختلفًا لما ردده الشاعر فصار كالتال ى "الماء والخضرة والجسد الحسن" .

مـن الواضـح أن الشـاعر كان يقصدهذا المعنى ، لكنه خشى هجومات عديـلة من الرقابة، فصاغه كما يتداوله الناس منذ عشرات السنين ، نعم ، الطـبيعة أنثى ونحن نلجها حسب قدراتنا ، ونمارس مضاجعتها مثلما نفعل مـع النسـاء ، بالـرؤية ، والشـم ، والسـمع، والـلمس ، واللعق ، وأحيانا بالحاسة السادسة لمن وهبهم الله إياها .

انشغلت داخل تأملى ، واهتممت أكثر بمراقبة تصرفـات النسـاء وهـن

يتعاملن مع أجسادهن بمودة شديلة ، واكتشفت معانى مختلفة للكيان الذى أسكنه، فهذ الجسد الذى يحمل إنساننا قليلاً مانهتم به فى مدننا بنفس الطريقة ، لذا فالسقم يأتيه سريعًا ، والشيخوخة والتجاعيد ، والشيب .

رحت أرقب المرأة ذات الشعر الأصفر باهتمام وكأننى عالم يضعها تحت المختبر ، أو أديب سوف يكتب تفاصيل ماتفعله فى رواية جديلة، إنها محبوسة داخل جسدها، تود أن تطلقه أسفل أشعة الشمس ، فتنزع مشد صدرها، وتتمدد على بطنها وتتخذ وضعًا مريحًا لقراءة رواية للكاتبة الشابة أميلى نوتومب، وتبدو كأنها راحت مع شخصياتها الغريبة فى عالم آخر، هو ، بلا شك ، أكثر سحرًا وخيالاً من الطبيعة الجميلة التى من حولها، أو لعله عالم مكمل له ، تذكرت ما قاله عباس العقاد أنه لن يكون سعيدًا لو اكتشف أن الجنة خالية من الكتب ، عنده حق ، فالتخيل تجسيد خاص للفردوس ، تتقلب المرأة ذات الشعر الأصفر وتصدر صدرها مباشرة نحو قرص الشمس، فيهتز كاللبن ، لا بل ليس كشىء إلا إذا قلنا يترجرج كنهد المرأة ، لا أعرف لماذا نستخدم التشبيهات كى تقرب تجسيد الخيال والمعانى ، مع أن مافعلته المرأة ليس فى حاجة إلى تشبيه .

إنها لا تزال مستغرقة فى القراءة ، تختلف عن الفتاة التى جلست إلى جوار رفيقها وبعد قليل بدا الاثنان كأنهما قد استهلكا الضرورى من الكلام فأعطى كل منهما ظهره للشمس ، وغرقا فى نوم أو تأمل ، لا يوجد اثنان يثرثران بنفس الطريقة التى نفعلها فى مدننا، هناك مشاركة غريبة الشكل ، قامت المرأة من مكانها وقد غطت صدرها ، ومشت بطول المساحة المخصصة للحمام على البحيرة ، تمنيت أن أقوم إليها وأطلب منها أن يبدد كل منا وحدة الآخر ، ووحشته ، لكن من أدراك أنها ترى أن وحدتها فى حاجة إلى تبديد ، لعلها بكل تأكيد سعيدة بهذا ، وأن تعبير "الوحشة" هو من تصورى الكاذب عن حالتها ، وأننى أرمى عليها ما أشعره ؟

عادت إلى مكانها وتمددت من جديد ، تبدو وكأن الله أعطاها المزيد من النعم التى يخص بها عباده ، الحسن ، والتضاريس المثالية ، والشباب ،

والثقافة ، والعيش فى مثل هذه المدينة ، إنها أقرب فى تصرفها الطبيعى إلى ذات المايوه الأحمر فى المسبح الكبير، لعلها فى حالة خاصة من السكينة أفتقدها بطبعى، وأنها قد حصلت على ماتريد، وأنها لا تتطلع إلى المدينة باعتبارها "مذكر" مثلما أراها أنا "مؤنث" فلا أكف عن الشعور بالرغبات غيرالمشبعة .

مددت آلة التصوير إلى جارى :

- من فضلك .. التقط لى صورة . هكذا ..

لم يتنبه أننى اخترت له الوضع بحيث تكون عاريات الصدور خلفى ، ربما رغبة فى تثبيت لحظة قد لا تتكرر كثيرًا فى حياتنا ، أو بهدف أن نبرز الصورة إلى أصدقائنا فى مدينتنا : "انظر إلى النسله العاريات من حولى"

التقط لى الرجل صورة وأجاب على سؤالى :

- أنها مدينتى .. لكننى لم أعش بها طويلاً .

بدا فى حاجة إلى من يروى له مجلدًا قصة حياته كبحار سابق تابع للعسكرية ، انتقل بين البلاد الكثيرة للعمل فى قوات حفظ السلام بين الدول المتحاربة، كان قليلاً ما يأتى إلى مدينته، وأثر هذا على علاقته بزوجته التى أعلنت له ذات يوم أن عليهما أن ينفصلا .

- ألم تتزوج مرة أخرى؟

تذكرت الباحثة الألمانية التى صادقتنى فى مدينتى علة أسابيع وهى تسألنى غاضبة :

- لماذا يكون السؤال الأول الذى يطرحه الناس فى بلادكم على المرأة الأجنبية : " هل أنت متزوجة؟ " .

رد :

- أنا سعيد هكذا. لكننى مريض .

الناس هنا ليسوا فى حاجة إلى الآخرين ،فالمشاركة جميلة إلى حد ما ، لكن الوحدة شىء رائع، لذا فإن عدد المواليد يقل عامًا تلو الآخر هنا .

بدأ كأنه يحتفظ بالماضى خلفه ، إنه أشبه بكارول ، هذا الماضى يمثل

بالنسبة له زوجة وبيتًا جماعيًا وابنًا هو الآن فى العشرينيات من العمر يراه بين الحين والآخر، لكنه لا يشعر بأى افتقاد له ، الناس هنا لا تعانى فى وحدتها ، والدولة تعد الكثير من سبل الرعاية للناس فى شيخوختهم حتى لا يموتون فى وحدتهم، لعل العرب الذين عاشوا طويلاً هنا ، ولم يمكنهم أن ينزعوا عنهم عاداتهم التى جاءوا بها ، هم أكثر الناس إحساسًا بالمعاناة حين الشيخوخة، فيموتون فى شققهم وقد أوحشتهم الغربة ، أو يختارون العودة إلى الوطن للموت هناك مثلما تفعل الأفيال وهى تبحث عن مقابرها .

من الغريب أن يتذكر المرءالمقابر وسط هذا التدفق الغريب من الحياة ، لكن الأكثر غرابة أن المقابر سوف تلتهم يومًا مثل هذه الأجساد الفاتنة، ألم تأكل أجساد مارلين مونرو، وكاميليا، والأميرة ديانا ؟

واستغرقنا الحوار، دعوته لتناول ثمرة التفاح ، فالتقطها شاكرًا، وجاب بى إلى عالمه الذى عاش فيه، اكتشفت فى أعماقى شخصًا آخر غير البصاص ، والمتنصت ، وهو "السائل" . بدوت أشبه بمحقق يرمى بالأسئلة على الشخص الذى أمامه من أجل أن يعرف المزيد، لعلها محاولة مؤكدة لإطالة الوقت معه من أجل تبديد وحشتى، لم يبد استياء، ولم يطرح علىّ سؤالاً مشابهًا يحاول به التعرف على كينونتى ، ولاحتى اسمى ، عرف فقط أننى من بلاد الفراعنة الذين يحبهم ، وراح يجيب على أسئلتى دون أن يبدى ما يضايقه منى .

بدا المسبح كأنه قد خلا من النساء وأنهن ابتعدن بأجسادهن عن دائرة بصرى إليهن ، وتحول المكان أشبه بسجادة خضراء مزدانة بالأجساد العارية ، التى تبهرك حين تقتنيها لأول مرة ، وتنظر إليها بتمعن فى المرة الثانية ، ثم تنساها تمامًا فى المرات التالية .

وأخذتنى المدينة من جديد ، فبعد الساعة الواحدة ظهرًا انتابتنى الرغبة المؤكدة للخروج من هذه القضبان غريبة الشكل ، وعندما خرجت إلى رصيف البحيرة لألتحم بالناس أحسست بالمعنى الحقيقى للمنفعة

الحديثة الذى درسته يومًا فى علم الاقتصاد .

سمعته ينادينى باسم وطنى مجددًا ، إنه مجدى ، صافحته بمودة وسألته عن سمير ، رد :

- عاد إلى وطنه .. انتهت مهمته .

قلت وهو يعطينى مجددًا شريط الفيديو والكاسيت . وكتاب المفاهيم السبعة :

- سوف أرسل خطابًا إلى سمير يومًا ما .

رد مجدى قبل أن أنطلق مجددًا إلى جوار البحيرة :

- أنت صديق قريب إلى القلب .

بدا رقيقًا ، لكنه لم ينجح أن يعرف رأيى فيما منحنى إياه أكثر من مرة .

وبعد يومين عدت إلى نفس المكان واكتشفت مسبحًا من نوع مختلف، يمكنك الدخول من بوابته دون دفع أى رسوم، وتمشى وسط الصخور إلى أن تكتشف فى نهايتها أن هناك بعض النسوة قد تمددن حاسرات المشد فوق الخاصرة، وقد افترشن "البشكير" تحت أجسادهن، المكان هنا يختلف ، فالمرء يمكنه هنا مصاحبة كلابه الأليفة ، وأن يطلب منها السباحة فى الماء، رمى هذا الشاب بقبعته إلى أبعد ما استطاعت قوته ، فقفز كلباه الكبيران إلى المياه يتسابقان من أجل إحضار القبعة ، كل منهما قبل الآخر، صرخ الشاب بقسوة لا تخلو من لين وهو ينتزع القبعة من فم الكلب الفائز، كأنه ينهره، بينما بدت ملامح الندم والاعتذار فى عينى الكلب الآخر الذى بذل ما بوسعه لإحضار القبعة أولاً فى المرة التالية ، لكنه لم يفلح ، فلاقى نفس العتاب الأقرب إلى المهانة التى أحس به رفيقه، فتركه ينطلق أسرع منه فى المرة الرابعة من أجل أن يتركه يفخر أنه حقق رغبة صاحبه .

اكتشفت مجددًا أن الناس لم تلتفت إلى الشاب وكلبيه، مثلما أثار انتباهى ، فكل شخص لا يبص إلا لداخله ، الأمر إذن لا يتعلق فقط بالبص على الحسناوات مهما كانت أوضاعهن ، بقدر ماهى حالة من السلوك العام ، حتى تلك المرأة التى تمددت لفترة طويلة لم تنتبه إلى آلة

التصوير التى أخرجتها من حقيبتى كى أثبت جسدها الفاتن فوق وريقة ملونة .

لفت نظرى الرجل الذى حاول مخاطبتها، يقف على مقربة منها ويتكلم إليها دون أن تغير من وضعها ، أو ترفع عينيها عن صفحات الرواية التى تقرؤها، انحنى قليلاً نحوها وتكلم إليها، يحاول أن يتصرف بمودة ، لكنها بدت كأنها فقدت أذنيها وعينيها وكافة قدراتها على التواصل مع أى آخر ، لم ييأس ، بدا مدربًا على مايفعله ، وأنه قد سبق له النجاح مئات المرات ، اقترب بوجهه منها ، وكأنه يستعد لكافة ردود فعل امرأة فى مثل هذا الموقف ، لكنها استمرت فى سد كافة مسامها ومسامعها ، وقدرتها على الإبصار ، اعتدل الرجل فى مكانه وراح يتكلم إلى السحاب ، بشكل يخلو من أى تفسير، بدت قطعة السحاب كأنها تتوارى بسرعة من أجل أن تدفئ جسد الفتاة التى قلبت صفحة الرواية التى غرقت فى أحداثها ، وكأن لا شىء يدور بالمرة على مسافة ربع متر من وجودها الجسمانى .

أحس صائد الحسناوات أن السمكة لن تعلق بصنارته فاستكمل مسيرته كأنه لم يفعل شيئًا ، ومضى إلى نهاية الصخور ، بينما خيل له أن الفتاة تتمدد أمام مثّال عليه أن ينحت حول تضاريسها تمثالاً ، فصار عليها ألا تتحرك إلا بعد ساعة تقريبًا ، وأن تضع المشد فوق الصدر ، وأن تعيد زيها الأبيض حول جسدها فتبدو مختلفة ، وجميلة .

نعم هى جميلة فى كلتا الحالتين .

وهى تتمدد عارية فوق الصخور غارقة فيما تقرأ ، ثم وهى تتحرك إلى جوارى حاملة حقيبتها فوق كتفها ، أنيقة ، بالغة الخفة والرشاقة ، حتى إذا اختفت عن الأنظار انتابتنى الرغبة فى مغادرة المكان رغم وجود أكثر من امرأة من حولى تركن للشمس مهمة صبغ أجسادهن ، بينما صارت كل منهن واحدة من بطلات الروايات الطويلة التى تقرأ وقائعها .

حتى الآن لم أصادف موريل فى أى من هذه الأماكن التى أشارت أنها تذهب إلى هناك للاستحمام والقراءة. قلت لها : سأكون هناك يوم الأحد ،

هلا جئت ؟

ردت بامتنان : ستجدنى هناك.. ابحث عنى .

ولم أفعل ، فقد انهمر المطر شديدًا فى صباح اليوم ، وبدت السحب المكفهرة كأنها تعاندنى ، وتخرج لى لسانها فى أن تصير لى صحبة حول الحمام الكبير ، اكتشفت أن موريل تقيم هنا غريبة مثلى ، وأنها لا تملك هاتفًا من أجل تغيير المكان . ظللت فى الفندق أتطلع إلى مياه المطر أعلن عن سخطى لما تفعله بى. خاصة أن مياه المطر قررت ألا تتوقف حتى الساعة الرابعة مساء، شعرت أن المطر المذكر يشعر بالغيرة منى ويقف حائلاً بيننا، ويحرمنى من رؤية موريل خارج الفصل ، قالت لى فى اليوم التالى :

– المطر لا يمنع الناس من الذهاب إلى المسبح .. مادام الجو ليس حارًا .

ولم أعلق .

لكننى عدت إلى المسبح من جديد ، كانت حصص الدورة الصيفية قد انتهت ، وصار أمامى الوقت للعودة إلى المسبح الكبير، لم تكن موريل هناك بالطبع ، فهى خارج المدينة فى رحلة إلى أسرتها البعيدة .

يبدو المكان أقل عددًا فى الرواد ، لكنهم كثير ، لم ألتفت إلى النهود العارية ، بقدر ماجذبتنى علاقات الحب الغريبة التى تتبعتها، وأنا مشتت بين القراءة والبص، هذه المرة فإن عينىّ تريان أشياء أخرى، إلى جوارى تمدد عاشقان فوق الحشائش الخضراء،وقد تشابكت أصابعهما ، وبدا كل منهما غارقًا فى النوم ، أو الشرود، أوالتفكير .

لكل إنسان فيما يعشق مذهبه ، وذوقه ، فهذا الشاب الوسيم الرشيق ، قد التصقت ركبته بركبة فتاته السمينة التى تبدو أشبه بنساء فيللينى فى "إنسى أتذكر" . بدينات أكثر من اللازم، ويحتاج العاشق إلى ذراعين إضافيين من أجل التمكن من لفهما كاملاً حول خصر حبيبته . بعد قليل ، جلست تلقمه شطيرة ، وعلبة عصائر ، ثم تمددت من جديد وقد نزعت مشد صدرها، كى يقوم بوضع الكريم فوق الظهر، ويستغرق فى التدليك .

يفعـل ذلـك كـأن حبيبته هـى صـاحبة أجمل الظهور فى الكون، وتبدو وكأنها تعرف بواطن جاذبيتها، ارتكن إليها فى سعادة، ووضع الرأس فوق الظهـر العـريض وراحا يتكلمان همسًا، وعندما غادرا المكان تلاصقا جنبًا إلى جنب ، كأنهما قد تراهنا أن لا قوة يمكنها أن تفصل جسديهما ، وأنهما لو دهمتهما سيـارة مسرعة ، فسوف يلقى الثلاثة نفس المصير معًا .

فعـلاً ، لـلحب قوانيـنه غـير المألوفـة ، فهـذه المرأة الزنجية بدت شديدة الحمية مع رفيقها الذى لم يكف عن تقبيلها حول المكان ، حين قفزا معًا إلى مياه المسبح ، وحين قفزت معه من أعلى الحمام وقد تشابكت أيديهما فدارا حـول نفسيهما مرات عديدة ، ماذا جرى فى الغرب من انقلاب نحو الحب الجـارف بـين الـبيض والـزنوج ؟ فبعد الروايات التى قرأناها عن الخطايا الـتى لا تغـتفرحين تقـع امـرأة بيضاء فى غرام رجل زنجى مثلما حدث فى فيـلم" حـذر مـن يأتى للعشاء"، ورواية " الحشائش تغنى". قال كرستيان مجيبًا على سؤالى الحائر :

- كل ذلك بسبب القوانين التى تحارب العنصرية .

أسـعى كـل مـرة إلى الـبحث عـن مسـبح مختـلف، ليس فقط من أجل العـثور، بالمصادفة على موريـل ، أو ليليان ، أو لاى ، ولكن أيضًا من أجل رؤيـة نسـاء أخـريات ، بعد أن بدت النسوة العاريات النهود كأنهن تماثيل متشـابهة مـن الصلصـال ، ورغـم ذلـك الصـدر غير الناهد الذى تمدد إلى جـوارى فإنـنى بعد أن تأملته للحظات قررت أن أدبر عنه ، ليس فقط لأن صـاحبته قـد تجاوزت الأربعـين، بـل بسبب ذلك العملاق الذى تمدد فوق مقعـد حديقـة الحمام المصنوع من الطوب، الذى ما أن خلعت رفيقته مشد صـدرها حـتى غـرق فى النوم ، كأنه يسمح لى أن أبص براحتى، انزعجت حـين أشار إلى زجاجة المنظف الصناعى التى وجدتها فوق رصيف البحيرة استحضرتها معى : فيم تستخدمها ؟

انزعجت مرتين، الأولى ظنًا أنه صاحبها، يبدو عملاقًا عريضًا، ثم لأننى قرأت أنه قد تصنع أن يغلق عينيه كى يضبطنى متلبسًا بالبص على رفيقته،

ارتبكت متلعثمًا :

- أغسل بها الأطباق فى الفندق .

رد : إنها لا تصلح لغسيل الأطباق .

قلت : أعرف كيف أستخدمها .

ودخل فى حوار معى، قال إن زوجته رسامة. كان النوم قد استغرقها بعد أن تيقظ هو ، كأنهما يتبادلان القيام بهذا الدور، قال :

- العالم ، لماذا يحارب بعضه .

قلت : خلق الله الإنسان فى حالة قتال منذ الجريمة الأولى التى ارتكبها قابيل .

أشار إلى أطراف الجبال من حولنا قائلاً :

- هل يستحق العالم من حولنا أن نفقده من أجل صراعات زائلة ؟

استند إلى جوار خوذته الضخمة ، وقال وهو يفرد قامته العملاقة ، بعد أن شعرت بالاستكانة إليه :

- فى العالم متسع للجميع .

قلت : الناس تريد لنفسها مساحات أكبر .

عندما ارتدت زوجته ملابسها بدت كأنها تستعد للعودة إلى دارها ، أوللذهاب معه إلى تناول الغداء ، قام من مكانه لأراه بقامة تصل إلى المترين . ابتسم وقال : إلى اللقاء .

اشتد إحساسى الداخلى أننا سنلتقى مجددًا ، رغم أنه لف امرأته الأقصر منه كثيرًا بين ذراعيه ، ومشى بها خارج المسبح، انطلقت وراءه أناديه : بيير .

لم يتنبه إلى إلا عندما لمست كتفه العالى ، ورآنى أمد له بسوار نسيته زوجته إلى جوار المكان الذى تمددت فيه ، نظر إلى باستغراب دون أية كلمة شكر، وسأل :

- من أنت بالضبط ؟

مددت بسوار من الحجر إلى الزوجة وقلت :

- وهـذا السوار لك من بلدى .. إنه من نفس الأحجار التى نحت منها الهرم . إنه يجلب الحظ لصاحبه .

طرح بيير نفس السؤال مجددًا : من أنت بالضبط ؟

كـان قد تكلم بإسهاب عن علاقات أناس ببعضهم لم يتقابلوا من قبل، فتربط بينهم مودة غير مألوفة ، قلت له : لك هدية عندى .. تمثال توت عنخ آمون .

وجـاءنى فى الفندق فى موعده المحدد، لم أتصور أن يسد القاعة الواسعة بجسـمه العملاق ، ومهابته ، وخوذته الضخمة ، تذكرت أننى ضربت ، عن غير قصد موعدًا لفرانك أن أقابله فى الحديقة ، قال :

- جئت فقط لأعرف .. لماذا منحتنى أنا وزوجتى الهدايا ؟

ارتجفـت حـين أخـبرنى أنـه يهـودى، بعـد أن انطـلق نافع وفرانك فى الحديقة مصدومين فيما ردده لهما ، سألته :

- هل أنت يهودى ؟

أخرج من صدره نجمة داود ذهبية ، وقال :

- زوجـتى مسيحية ، وأنا يهودى مثل أمى . أمى يهودية متعصبة . وأبى مسـيحى تـركها مـنذ سـنوات ، وقـد صـرت مثلها لأنها ربتنى جيدًا ، وأنا أحبها كثيرًا . .

عرفت منه أن أمه سويدية ، وأن أباه كان من كبار رجال العسكر الألمان، ولم يمـنع هـذا الحـب الجـارف فـيما بيـنهما مـن النمو وأن يثمر عملاقين ، أحدهما رسام متزوج من فنانة تجاوزت الأربعين هى التى جاءت معه صباح اليوم إلى المسبح. قال :

- توصلنا إلى أجمل صيغة للعيش سعداء بعد خمس سنوات من الزواج. لماذا لا يعيش كـل مـنا فـى شقة منفصلة عن الآخر ، وأن نلتقى مرتين أو أكـثر كل أسبوع ، نتقابل كالعاشقين ، نذهب إلى المسبح ، ونتناول الطعام ، ثم يعود كل منا إلى شقته . هكذا يشتاق كلانا إلى الآخر أكثر .

هؤلاء الناس يتفننون فى أن ينفردوا بأنفسهم أكثر. يشعرون بالاسترخاء

أفضل كلما ابتعدوا عن بعضهم .

سألته مجددًا : أنت يهودى حقيقى. أليس كذلك؟

ضحك ، بدا مختلفًا عن صورة اليهودى الشرير الماثل أمامنا فى كل مكان ، إنها المرة الأولى التى أقترب فيها من يهودى إلى هذه المسافة الإنسانية ، والمكان الذى يجمعنا أيضًا ، قال :

- نعم. أنا يهودى ، ليس كل اليهود إسرائيليين ، صحيح أن اليهود يحلمون أن يكون لهم وطن، لكن لسنا كلنا سفاحين، أحبت أمى أنور السادات لأنه عقد معاهدة مع إسرائيل ، ونشر السلام فى المنطقة . يحاول مبارك أن يُتم السلام فى المنطقة ، لكن شارون .

وأصدر إشارة من فمه كأنه يتجشأ ، أو يتبرز ، وقال :

- ليس من مصلحة اليهود فى العالم أن يكون رئيس وزراء إسرائيل سفاحًا دمويًا مثل شارون .

وكرر الحركة مجددًا ، وقد تركنى فى دهشة لفهم الأشياء من رؤية مختلفة تمامًا .

الأنثى السادسة

كان يجب أن أقبل دعوة مونييه إلى مدينته بوسان من أجل استعادة كافة الأماكن التى شاهدتنا أنا وميليسا ومارينا هناك .

لأنهما ماثلتان تمامًا فى أعماقى منذ أن غادرت المدينة قبل علم، وافقت مارينا على العودة إلى المدينة قادمة من بلادها لاستعادة حب مسروق فيما بيننا، لا أستطيع أن أتخيل أنها غير موجودة هنا. قالت فى الهاتف من جديد:

– سوف آتى .. لا تقلق .

وتمر الأيام دون أن تأتى ، وجدت وريقة باسمى فى صندوق خطابات الفندق :

– مونييه يحييك .. من طرف مارينا .. اتصل بى على هذا الرقم ...

– آلو ... السيد مونييه .

– أهلاً ..كم أتمنى رؤيتك ..مارينا حدثتنى عنك كثيرًا .. أنا وكيل أدبى .

لم أفهم ماذا يقصد بما يقول ، حتى بعد أن قابلته ، جاء من مدينته التى تبتعد مائة كيلو مترًا ، ورأيته ينتظرنى فى الفندق ، لف نفسه فى سترة ثقيلة رغم أن الجميع هنا يرتدى الملابس الصيفية ، بدا مختلفًا تمامًا عن الشخص الذى انتظرته، رأيت مارينا تحوم حوله ، ولأول مرة تتجسد صورتها أمامى، رغم أن آخر صورة بعثتها إلى كانت قبل أسابيع ، أرسلتها من الأرجنتين .

هذه المرأة الغريبة ، احتفظت بعنوانى، وربما بشخصى معها، حتى حينما دعيت إلى الأرجنتين. يالها من امرأة "جدعة" مثلما حاولت أن أجد مفردًا لغويًا يمكنها أن تفهم به المقصود بالضبط، سألته :

– متى ستجىء مارينا ؟

وضع يده على أذنه ، فى البداية تصورت أنه لم يفهم لكنتى ، فارتبكت حيله أننى لم أتقن اللغة بطلاقة أبناء بلدها، كررت عليه السؤال . ابتسم، قال :

- سوف تأتى .. صدقنى .. أكدت لى أنها سوف تأتى .

كان يعرف أننى قررت المساهمة فى تدبير تذكرة الطائرة ، قلت له : أنتظرها على أحر من الجمر .. لكنها تأخرت .

مجددًا وضع راحته على أذنه كأنه يحاول أن يستجمع كلماتى ليفهمها، ارتبكت المعانى فى داخلى سخرية من لكنتى ، قال :

- دبرنا لها الفيزا .

من الواجب أن ألتزم بما وعدت به مارينا حتى لو جاءت إلى المدينة عقب رحيلى بأيام ، قلت له :

- لا أستطيع البقاء حتى تاريخ وصولها. لقد تأخرت كثيرًا .

هنا فقط فهمت أنه يعانى من درجة من الصمم . نظرت إلى الساعة ، سألته :

- هل تأتى معى؟ سوف أذهب أنا وزميلاتى فى الفصل فى رحلة شواء

اعتذر بلباقة ، إنها المرة الثانية التى أفضل فيها الذهاب إلى رحلة للبحث عن شيء ما يرتبط بامرأة ، حتى لو كانت مارينا . كان كرستيان قد اقترح على مورييل أن نذهب معًا إلى رحلة شواء ، وبدوت أكثر المتحمسين للفكرة ، أحسست أننى أريد أن أكون قريبًا منها ، خاصة بعد يوم حفل الاستقبال ، وعندما عدت إلى الفندق وجدت مونييه . كان استعدادى على ذروته للرحلة، فالحقيبة التى بها مشاركتى فى الشواء امتلأت بما يعنى كرمى العربى ، سار بجانبى من الفندق إلى المحطة ، يهل على بروائح مارينا ، يتحدث عنها ، فينثر ذكراها من حولى فى الشارع الذى طالما تمنيت أن يضمنا معًا لنعيش متجاورين على أفضل ما يكون العشاق، رأيتها تتمخطر بأنوثتها من خلال عباراته عنها، إنه يعرفها أكثر منى، وسبق له أن استقبلها فى مدينته أكثر من مرة باعتباره مهتمًا بإقامة المؤتمرات الثقافية التى

تستجلب العديد من المثقفين فى العالم خاصة من وطن مارينا، بلد الفاتنات ، كما رأيت راقصات أحد الملاهى الليلية، وزميلتى نينا، التى تبدو أكبر من سنها بكثير رغم أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة ، هى أجمل بدرجات كثيرة من كلوديا شيفر . بدوت كمن يريد أن يتخفف من قلق علم حضور مارينا ، وهاهو ذا شخص سوف يساعدنى فى تحمل بعض التكاليف فى مدينة مرتفعة الأسعار ، بدأت أعرف طبيعة مهنته ، فقد عمل مدرس فلسفة لبعض الوقت ، ثم اعتزل المهنة كى يفتح وكالة صغيرة للمؤتمرات الأدبية ، ومن هنا جاءت معرفته بمارينا ، تمت دعوته لحضور مؤتمرات أدبية فى موسكو، وحاول أن يرد لها زيارته بدعوتها للحضور إلى هنا ، عندما رأتنى موريل قرابة شباك تذاكر القطار أسرعت نحوى فى لهفة ملحوظة ، أشرت إليها وقلت لمونييه أمامها :

- هل ترى إلى أى حد حبانى الله بأستاذة جميلة ؟

ابتسمت ، سألتنى عن بقية الزملاء ، قلت :

- لم أر أحدًا منهم ، هل يمكن أن يأتى مونييه معنا إلى الشواء؟

هزت رأسها بالإيجاب ، بدت عيناها كأنها تؤكد ما سبق أن قالته لى أننى أعرف الكثير من البشر، اعتذر مونييه عن علم الحضور معنا مرددًا :

- سأنتظرك الأسبوع القادم فى مدينتى .

ووسط التردد فى العودة إلى المدينة ، كان يجب استحلاب كافة ذكرياتى التى عشتها فى بيت الأدباء ، ما أجمل أن يلعق المرء كافة الذكريات التى عاشها من قبل فى كبسولة قصيرة من الزمن، تأخذنى سيارة صديق تنطلق وسط الجنان الخضراء والبيوت الصغيرة ، والطبيعة المكفهرة التى لم تكف عن إسقاط أمطارها الصيفية طيلة النهار ، ومع ذلك فأنا هناك ، يجب أن ألحق بنفسى، وكأننى لم أغادر القصر طوال العلم المنصرم ، مهما كانت الأماكن التى حاولت أن تسلبنى الأجواء الساحرة التى عشتها فى هذا القصر الضخم المطل على الفردوس ، رأيت ميليسا لا تزال تنطلق عبر الحقول ، وإلى جوارها شبحى يحاول أن يحاكيها ، لكن المروج تتحرك

بسرعة السيارة والزمن، تلتقط عيناى كافة ماتقدر على تسجيله فى الذاكرة ليتحول الوقف بدوره إلى حالة من الحنين . كأننى سأبقى عامًا ثانيًا أكرر ما جرى لى طوال السنة الماضية عقب الرحيل ، هزتنى حجارة سور القصر الضخمة وأنا أقف إلى جوارها أتحسسها ، أتشمم رائحة ميليسا عندما عانقتها هنا لأول مرة ، لايزال عبقها يفوح من السور الذى نبتت من حجارته النباتات الصغيرة معلنة عن مقاومة الحجارة لعوامل الزمن ، محتفظة لنفسها بعبق كافة العشاق الذين حذوا حذونا .

عندما دخلنا الندوة أدركت أننى جئت مكانًا لا يخصنى ، فلا أحد أعرفه من الجالسين هنا عدا فرانسين التى هتفت عندما رأتنى ونادتنى باسمى ، إنها الشاهد الوحيد أن رجلاً مليئًا بالخصوبة زار غرفة ميليسا وترك أثرًا يجب إزالته بالغسيل ، رحت أتصفح وجوه الضيوف الذين حلوا فى المكان بدلاً منا ، وحاولت أن أجمع خيوط قصة حب تدور فى المكان قبل أن يفترق طرفاها خلال أيام مثلما حدث بينى وبين ميليسا، أيقنت أن ما شاهده القصر بيننا فى العام الماضى لا يمكن أن يتكرر أبدًا فى هذا القصر، لا تبدو بين ضيوف القصر فتاة لها أنوثة مارينا، وهل فى الدنيا امرأة تتمتع بنفس الأنوثة ؟! أتمنى لو كانت عيناى كاميرا رقمية تلتقط كافة ما يحدث دون أن تفقد ملمحًا واحدًا من هذا المكان .

استمعنا إلى الموسيقى هنا، وجرت نحوى باكية معتذرة تعانقنى، وتبلل دموعها وجهى وكتفى، وغازلت مارينا هنا، لا أعرف من أتذكر بالضبط، مارينا أم ميليسا، لقد صارت المرأتان "مؤنثًا واحدًا " من الصعب فصله إلى امرأتين، أراهما معًا فى الذاكرة، وأجمعهما معًا وأنا أتحرق رغبة فى التجول داخل دروب القصر، غرفه، وسطحه، وسقوفه، ومخزن الغذاء، وممرات الأشجار .

بعد أن انتهت الندوة . مددت لفرانسين فى المطبخ بهديتى الفرعونية ، قبلتنى وسمحت لى أن أختلس لحظات من الحنين المؤلم نحو ما دار بين من عشقتهن فى هذا المكان ، ألقيت نظرة على باب غرفة ميليسا ، رأيتها تخرج

فـى الـروب دى شـامبر الأبيـض مـن الـباب الأبيض ، وقد زادت بشرتها نصاعة ، فارتجف قلبى ، وتمنيت لو عانقتها قبل أن تذوب أمامى .

كالمجـنون أنـا فى القصر ، أختلس أجمل أيلم العمر ، أنادى كل الغرف ، والجدران والتحف والكتب الموجودة فوق الأرفف :

- هـل لا تـزالون تذكرونـنى ؟! منحتنى الحياة امتيازها حين كنت يومًا بينكم .

دفعـت بـاب الغرفة السرية التى كانت تفتحه ميليسا كلما دعتنى ليلاً إليها لنذهب سويا إلى جنتنا الخاصة ، سمعت فرانسين تنادى :

- علام تبحث ؟

- ألم تكن هنا حجرة الهاتف ؟

- نقلنا الهاتف إلى مكان آخر .

تركتنى أختلس نظرة سريعة إلى الباب السرى الأبيض، سألتها :

- أين حبيبك الأرجنتينى ؟ .

بيؤس رددت :

- هجرنى ورحل .. خائن .

أغـلب قصص الحب لا ينتهى كما يريد المشاهدون، تبدو فرانسين جميلة بسـمرتها الأقـرب إلى بشـرة الشـرق أو إلى أبـناء أمريكا اللاتينية، تركتنى أدخـل الحمـام لأستجمع بعض اللحظات هناك، أحاول أن آخذ شيئًا يؤكد أننى مررت من هنا ، لكن من الصعب أن أستجمع كل شىء ، صعدت إلى الـدور العـلوى لأرى بـاب الغـرفة الأبدية لمارينا لايزال مغلقًا بعد رحيلنا معـًا .

توقـف المطر عن السقوط تحية لأهرام الحنين المتراكمة فى أعماقى كأنها تحـاول الـتفجر فى أية لحظة، تبدو الأشجار بفحيحها كأنها تبادلنى التحية، وتسـتقبلنى بطريقـتها الخاصـة، إنهـا تعرفـنى بالـتأكيد فقد اقتطفنا حبات الكرز منها ، وسمعت همسنا بآذانها القوية السمع ، أُلملم الكلمات المتناثرة حـولى مـن ضـيوف الـندوة، وألـتقط زقـزقات النسـاء ، وأشعر بالفخر بأن

قصتنا لم تتكرر لضيوف هذه الدورة من بيت الكتاب . فلا شيء يؤكد أن هناك قصة مثل قصتنا ، أربع نسله ورجل واحد ، فتنته أنوثة اثنتين ، أما الثالثة فقد بهرته كشاعرة تكتب القصائد بعقلها .

ما أجمل الكتابة ، فهي الشيء الوحيد الذى يمكن من خلاله إعادة تصميم أبنية الذكريات التى تهشمت على درجات الزمن، وما أروع الكلمات الباقية فوق الصفحات معبرة ، بعجزملحوظ عن الزمن المنصرم الذى لن يعود مهما توسلنا فى استدعائه ، حتى لو حضرنا إلى نفس أماكنه مرة أخرى ، لكن من الصعب أن نستجلب أطرافه الذين تناثروا رغمًا عنهم إلى أركان البسيطة الأربعة .

أيتها المارينا ، لو كنت هنا، ولو منحوك الفيزا لقبلتك خلف هذا الباب الذى تلاحمنا فيه لأول مرة ، ولأخذتك إلى تلك الشجرة لنلتقط حبات الكرز الحمراء مثلما فعلنا وصبغنا بها ألسنتنا المشتاقة للحوار معًا ، ولدفعت بك إلى تلك المائدة البيضاءلأقدم لك طبق الغزل الجميل الذى قلت وأنت تسمعيه :

- إنها أغنية الطبيعة .

- بل هى أنشودة مارينا .

وتفككت الأنشودة والأغنية، والسيارة تمرق بنا فى نفس الطرقات، والقلب المرتجف يتساءل : "هل نرجع مرة أخرى إلى هنا؟ ونجتر نفس اللحظات التى ضاعت مأسوفًا عليها عبر الزمن؟"

فى المساء ضغطت على أرقام الهاتف فى الفندق وهتفت :

- مارينا .. كنت هناك .. أسترجعك إلىّ .

بصوتها المغموس بالغنج والأنوثة ردت :

- آه .. شكرًا .

- ليس بين العشاق شكر. حاولى أن تأتى. المدينة خالية تمامًا من النسله.

شكرتنى مجددًا على الإطراء الجميل،وتحركت الكلمات بسرعة مع بطاقة الهاتف ، لم أحدثها عن الأشجار التى ارتفع حفيفها يهتف لى : لماذا لم تأت

معـك بالحسناء "الجدعـة" الـتى سـارت معـك فى صباح الأحد كل هذه الكيـلومترات مـن أجل الذهاب إلى محطة القطار؟ . ولم أتمكن من إخبارها أنـنى تذوقت نفس مشهيات الطعام التى كانت فوق المائدة البيضاء ، وأنها بـدت كأنها فقـدت مذاقهـا الخاص ، لأنها لم تستطع اللحاق بنا ، وانتهت المكالمة دون أن أحدثهـا أن غرفـتها المطـلة عـلى الفـردوس كـانت مغـلقة الأبـواب ، كأنهـا تنـتظرها كـأميرة مـتوجة ، تفـتح لى الباب عندما ينتصف الـليل لأشـعر أنـنى قـد استعرت جلود الأمراء من أجل أن أكون جديرًا بالصـعود إليهـا ، وقفت مخمورًا بأحداث اليوم كله داخل مقصورة الهاتف، ووجدت أصابعى تبحث عن بطاقـة الهاتـف الإضافية .

وأضغط على أزرار أرقام أخرى :

– مونييه .. انتظرنى من فضلك . سأصل فى التاسعة صباحًا .

ووجدنـى فى المكان المحدد بعد وصولى إلى مدينتى المقدسة الأخرى التى شـهدت عـلى نزهتنا الوحيدة معًا خارج منطقة القصر، قتلت ترددى ، وأنا أحسـب أسـعار الـتذاكر المرتفعة فى هذا البلد، ورغم ذلك ضمنى القطار فـى سـاعة مـبكرة متجهًا نحو المدينة، وعرفتنى العربة التى اختارتنى مبتهلاً لجمـال الطـبيعة ، متسـائلاً عـن الشـكل المتخيل للفردوس، كماحدثنا عنه أهاليـنا ونحـن صـغار من أجل إقناعنا أن الحياة الآخرة أكثر فتنة من الدنيا الزائلة التى نعيش فيها الآن .

وعـندما بـلغت المديـنة ، قـبل موعدى بساعة كاملة مع مونييه كان أول شـىء بحثت عنه هو أماكن الذكريات التى ضمتنا نحن الثلاثة. كان الوقت مبكرًا ، والمدينة لم تصح من النوم بعد ، صاح مونييه عندما رآنى :

– تعال نتناول مشروبًا ساخنًا .

ورغـم آثـار المطرالمتـناثر فى المدينة ، إلا أننى لم أكن فى حاجة لاحتساء أى مشـروب سـاخن ، فقـد بـدا لهيـب الذكـريات أقوى من أى منبه يمكن للمرء أن يتناولـه . حدثنى مجددًا عن مكتبه والمؤتمرات التى عقدها ، وعن الكـتاب الذيـن الـتقاهم فـى حياتـه، لكـنه اندهش وأنا أحدثه المزيد عن

الذين لا يعرفهم من الأدباء الذين أكتب لهم المراسالات، وددت أن يحدثنى أكثر عن مارينا . لم أتصور أن حدود علاقتها به أشبه بما دار بيننا ، لا أعرف لماذا ، قال :

- مارينا قالت عنك كلامًا جيدًا .

قلت مجاملاً :

- وأنت أيضًا .

أخذنـى إلى المكتبات الكبرى فى المدينة ، لكننى كنت فى حاجة إلى أن أرى آثار المرأتين هناك، أن أمر إلى جوارالمطعم الذى التهمنا عنده الغداء، وأن نصعد معًا، إلى الكاتدرائية التى عانقت ميليسا فيها، وبدأت ألمس المقاعد التى جلسنا فوقها، وأراها تتحرك هنا وهناك. لم تشدنى عمارة المكان الإعجازية، فلدينا فى القاهرة جامع السلطان حسن المصمم على طراز أكثر إبهارًا . قال مونييه :

- أتود الصعود إلى البرج ؟

شعرت بسخف الرحلة، فرفيقاتى فى المرة السابقة كن ثلاث فاتنات، من أقطاب الدنيا المختلفة، أما مونييه الضعيف السمع فيبدو أقرب إلى مهرج لطيف، يحاول أن يكون كريمًا معى وهويحدثنى، دون أن أنتبه كثيرًا، عن حياته، فهو يعيش أعزب، لم يسبق له أن جرب الزواج، وربما النسل، يبدو أشبه بالطائر الشارد، لكنه يعيش فى مدينة صغيرة، تتسم بالفخامة، لكنها لا تناسب الطموحين، سألته :

- لماذا تبقى هنا ؟

ردد : وهل هناك مدينة أجمل من هنا ؟

لم أجد ردًا ، تبدو كافة الأماكن التى اختارها البشر بمثابة الجذور التى نبتوا من داخل أراضيها ، وعليهم الرجوع إليها مرة أخرى من أجل تأكيد نظرية الرسوخ .

تجول بى إلى ما يشاهده الغرباء فى المدينة، وددت مقابلة البشر، لم تفتنى المقتنيات الفنية والعلمية فى متحف الجامعة، قدر ما شدنى وجه جميل مر

من أمام واجهة عرض بداخلها نمر محنط أكبر حجمًا من نمور الأفلام ، تساءلت :

– كان يجب أن يحنطوا الصياد الذى تمكن منه إلى جواره . بالتأكيد مات

رددت هذا باعتبار التاريخ المسجل على اللوحة النحاسية الصغيرة الذى يشير أن الصيد تم قبل أربعين عامًا ، قال ببساطة :

– الصياد لم يمت حتى الآن. إنه الآن فوق جبال الهيمالايا، اعتنق البوذية

كرر السؤال ونحن فى الكاتدرائية :

– هل تود الصعود إلى البرج ، يمكنك أن ترى إلى مسافة ألف كيلو .

وراح البرج يلفنا فى درجاته الصغيرة الضيقة ، والدوار يلحق بنا ، قال بنبرة لا تعرف هل هى مزاح أم أنها أسلوبه فى الحديث :

– لا أحب الأماكن العالية..أشعر كأننى سوف أسقط إلى أسفل .

رحت أتطلع بجنون ونشوة عارمة نحو الأفق الممتد وكدت أن أرى الكون يبسط نفسه أمامى ، وتساءلت : هل فى الفردوس مرتفعات مماثلة يمكن للمرء منها مشاهدة ، كما قال ، البسمه المنبسطة على مسافة ألف كيلو مترًا ، الخضرة التى تخفى بين ثناياها عددًا لا يحصى من العشاق والحالمين، وسؤال يطرح نفسه بإلحاح قوى : " هل يعرف الناس هنا نفس النوع من المعانة التى نقابلها فى مدننا؟ " لا شك أن فى الحب متسع ، وفى البحث عن تجارب جديدة محاولة للخروج من إيقاع غير تقليدى .

نظرت إلى مونييه الخائف من الاقتراب من السور خشية السقوط إلى أسفل مائتى متر، وهو يضحك" ترى هل عرف اللذة مع مارينا بدافع البحث عن التغيير؟"

طردت الإجابة عن ذهنى ، لا أريد أن أفسد شعورى بالحنين ، أنا مسئول عن عواطف ومشاعر مارينا حين تكتب لى خطابًا، وحين خابرتنى فى الهاتف قبل أسبوعين تتبادل معى تحية عيد ميلادى، وعندما يتسرب صوتها إلىّ ، وتتوقد كلماتها فى الورق الأبيض الذى تسطره لى .

قلت : ليتها كانت معنا الآن .

بالمزاح الممزوج بالخوف من السقوط إلى أسفل البرج :
- ليتها معك أنت .. إنها حبيبتك .
واهتز الفؤاد ، وودت أن أنبس"هل تعرف ؟ هل روت لك شيئًا ؟" .
حاولت إيهامه أنني وقعت فيهوى امرأة أخرى اسمها ميليسا ، وأن إعجابي ينحصر في الشاعرة مارينا . سأل فيما أعرف إجابته، لكنه أكده :
- هل تعرف أنها من سلالة الأمراء في بلادها ، هي أميرة حقيقية ، في عروقها دم الأميرات ؟
انتفشت عروقي وانساب الهواء النقي القادم إليّ من هذه المسافات الواسعة، وتيقظ الرجل في داخلي مؤكدًا أنني لمست جسد أميرة حقيقية ، وضممتها إلى صدري ، وهمست له أنها "ست جدعة" رغم عدم العثور على الكلمة الأجنبية التي تعنيها تمامًا، نظرت نحو الأفق ، تخيلت نفسي أنظر إلى جهة المدينة الموجودة فيها الآن ، وصحت مرسلاً نبضات صوتي مع الريح المتجهة نحو الشمال الشرقي :
- مارينا .. أحبك .
ثم درت حول البرج وتطلعت إلى نفس المكان، على حين ينظر مونييه إلى ساخرًا ، ضاحكًا :
- أميرتي أحبك .
ولم يسمعني مونييه ، وأنا أردد لنفسي في أسى حقيقي :" معذرة . لقد شاركتك امرأة أخرى في مشاعري نحوك .. أنا آسف .. مارينا".
لم أستطع منع تدفقي الحاد ، وأنا ألف مرة ثانية كي أشهد النسمات العابرة من المدينة إلى حيث ربما توجد مارينا، قال الرجل وهو يحس بالدوار :
- كفى . سوف أسقط من كثرة الدوران حول البرج معك .
- لماذا أنت معي الآن .. وليست مارينا ؟ .
- كي أذكرك بها . تعال .
شدني من يدي لندخل أحد الأبواب الخشبية البالغة الضخامة للبرج ،

وقال :

– اكتب لها هنا أنك تحبها .

بـدا الباب جديدًا ، كأنه مصنوع منذ أيام ، ربما أقاموه من أجلى وحدى كـى أخـرج قـلمى وأنحت حروف اسمها . يقوى شعورى بالاعتذار لها لأننى أشـركت ميليسـا فـى مشـاعرى المتدفقة نحوها، وبرزت الحروف قوية كأول عاشـق يرسـل عـلى جـدران الـباب الأبيـض رسـالة إلى حبيبته "مارينا .. أحبك" .

عـندما نزلـنا فوق سلالم البرج روعتنى الرسائل العاطفية العديدة التى كتبها العشاق الذين صعدوا نفس السلالم منذ مئات السنين : هذا توماس كـتب رسـالة إلى فـتاته بدمه الجاف فى يناير ١٧٨٦، وهذه مارتا أكدت على حبها لروبير فى العلم الثالث من القرن العشرين . قلت :

– مونييه ، يجب أن أعود لأدون تاريخ اليوم .

ردد : اتـركه هكـذا .. فهـو بـدون تاريخ لن يجعل حبك لمارينا قصة من الماضى ، بل كأنه مكتوب بالأمس .

قال وهو يشاهد ترددى ، ورغبتى فى العودة :

– وربما اليوم .

قلت : بل كلمتى مكتوبة اليوم ... و .. كل يوم .

عندما عدت إلى الفندق ، ووجدت نفسى وحدى ، دفعت ببطاقة الهاتف داخل الجهاز ورحت أضغط على الكثيـر مـن الأزرار ، جاءنى صوتها :

– ماريـنا ، لو جئت إلى هنا يومًا وكنت غير موجود، اصعدى إلى الباب الأبيـض الجديـد فـى بـرج الكاتدرائيـة الـتى كنا عندها فى العلم الماضى . سوف تجدين رسالة لك .

وأنـا أحـاول إسـكات قلبى عن التدفق ، وأن أسمع تنهيدات أميرة على الطرف الآخر من الخط :

– ماريـنا، هـذه الرسـالة مكـتوبة يـوم أن تقرئيها، وليست فقط بتاريخ اليوم .

الأنثى السابعة

قلت لكرستيان :

- هل لاحظت ؟

رد : لقد وقعا في الحب .

ومن خلف زجاج النافذة رحت أتطلع إلى العاشقين الجديدين ، اللذين بدوا كأنهما يعلنان نفسيهما مواطنين فى مملكة الحب لأول مرة ضمن ملايين العشاق الذين باركتهما المدينة ، وأعطتهما الفرصة لتبادل الكلمات الجميلة، والتعانق بالأيادى ، هى لينا ، الفتاة السويدية التى كانت أول من قابلت فى المدينة المؤنث وأنا أدخل الجامعة . تمنيت لو صارت حبيبتى التى ترافقنى فى نفس الشوارع مثلما تفعل الآن مع الإسبانى صموائيل ، لكن ما لبثت أن اكتشفت الفارق الطويل فى العمر ، فصارت مجرد واحدة من عدة بنات صغيرات ، تجلس فى المقاعد الخلفية ، وجاء مكانها إلى جوار شاب يناسبها فى العمر ، ويتسم بحضور شديد ، فكان التطور الطبيعى أن يقعا بسرعة فى الحب ، مثلما تمنيت أن يحدث مع كاترينا من جورجيا ، ومع كاتيا التى جاءت هى للجلوس إلى جوارى .

الرحلة كانت ساحرة ، حسبما خطط لها كرستيان ونفذتها موريل . التى تمنيت أن تكون معنا فى السيارة التى قادها كرستيان ، لكنها أصرت على العودة بالقطار مع بقية زميلاتها .

قال لى كرستيان ونحن عند أطراف البحيرة حيث نقيم الشواء :

- أريد أن أحدثك فى موضوع مهم .سوف نعود معًا بالسيارة إلى المدينة .

وضمتنا السيارة نحن الأربعة ،ففى الخلف جلس العاشقان الجدد لينا

وصموائيل ، وقد تشابكت يداهما وتركا لهاتين اليدين الفرصة الوحيدة للتخاطب فيما بينهما ، بينما راح كرستيان يحدثنى فى أشياء عديلة ليس من بينها الموضوع الذى يود مخاطبتى به ، لم يكن ذلك العملاق الأشقر الوسيم الذى يقترب طوله من المترين قريبًا منى طوال الأسبوعين الماضيين، لكنه يكشف لى أن هناك أمرًا مشتركًا فيما بيننا لا بد أن يخبرنى به .

اختار مقهى خاليًا من الرواد بحكم التوقيت الذى جلسنا فيه ودخل فى الموضوع مباشرة :

- أريد أن أتزوج امرأة مصرية .

يا إلهى ، ماذا يدور فى الدنيا من تناقض؟ لقد جئت إلى هنا بحثًا عن امرأة أمحو بها قصة حب متناقضة ، فلم أستطع شيئًا حتى الآن ، وهاهو ذا وسيم أوربى يبلغنى أنه يريد امرأة من مدينتى .

مدينتى أيضًا أنثى تعرف قصص الحب لكن بدرجات مختلفة، وبصورة متباينة :

- نعم .. أريد زوجة مصرية .. لا تندهش . أنا مسلم ، فزوجتى من إيران .

بدا كأنه قد ادخر كافة أسباب الدهشة من أجل أن يطلقها فى تذيقة واحدة لا أستطيع استيعابها ، لم تكن فى نبرته أية درجة من المزاح ، قلت : النساء فى كل العالم ، لماذا مصر بالذات ؟

رد : أحب الجمال الشرقى .

- فى سوريا ولبنان نساء ساحرات ، أقرب إلى النمط الأوربى.

- لا أحب النمط الأوربى .. أحب الشرقيات .

وضحكت منتظرًا منه أن يسألنى عن السبب ، لكنه بدا كأنه يود أن يوصل رسالته إلى ، أخبرنى أنه مفتون بسمروات الشرق ، مثل عارضة الأزياء الصومالية إيمان التى تزوجت من المطرب دافيد بوى ، وأن المرأة الشرقية ذات الجسد النافر هى أجمل نساء الأرض . قلت له :

- الأمر ليس بهذه السهولة .

- أنت يمكن أن تعثر لى على عروس لها نفس المقاييس .
- ألست متزوجا ؟
- بلى ، لكننا فى مرحلة الانفصال .

أردت أن أقاطعه من أجل تحقيق أمنيتى التى لوح بها فى أثناء الحوار، قلت له :

- أنت تسكن فى مدينة تقع عند الأطراف ، كم أريد زيارتها .

بدا كأنه لم يسمعنى واستمر فى حديثه ، إنه يحب نساء الشرق، وله هوس خاص بهن ، وبدأ يشرح لى التفاصيل الخاصة بالمرأة الأغوذج التى يتمناها ، حاولت أن أجد كافة مايطلب فى النساء اللائى يمررن يومًا فى درب الحياة حتى وإن كن من المشاهير ، إنه يريدها سمراء، ناهدة الصدر ، فى الثلاثين من عمرها ، ذات تضاريس لافتة للنظر، عند الصدر ، والمؤخرة ، وطويلة ، أقرب إليه ، وتتفهم الثقافة الأوربية ، وتتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة ، وألا تكون عذراء .

قلت : الرجل فى بلادنا يفضلها عذراء لضمان ألا يكون شخص آخر قد مسها . مثلما تفعلون هنا مع الكثير من الأشياء ، خاصة زجاجات المشروبات .

هذا أمر لا يهمه . أخذتنا الطرق المظلمة ، وهو لا يكف عن وصف المرأة التى يريدها، وأنا أتصفح كافة ما أعرف من وجوه ، رددت :

- أغلب من أعرفهن بهذه المواصفات متزوجات ، و ..
- أفضل أن تكون أرملة ، أو مطلقة .

بدا كأنه يسلمنى كتالوجًا متكاملاً للمرأة التى يريد ، من الواضح أنه منظم للغاية ويعرف مايريد، خاصة أنه يعمل فى الدعاية بإحدى شركات السيارات فى مدينته التى جاء منها ،من أجل أن يتقن أكثر اللغة الفرنسية ، فى أثناء الصيف . كررت السؤال :

- أنت متزوج ، فلماذا تود عروسًا أخرى ؟

أجابنى برد على السؤال الذى طرحته قبل قليل ، وهو يستودعنى عند

باب الفندق :

- اذا أردت أن تأتى معى إلى مدينتى ، فأنا ذاهب إلى هناك بعد الغد.

إنه مثلى تمامًا، في حياته امرأة ، لكنه يود إحلال مكانها بامرأة أخرى من ثقافة مختلفة ، وبلاد بعيدة رغم ازدحام مدينته بالحسناوات . كل منا ينجذب إلى مايفتقده، هو إلى امرأة سمراء، ممتلئة، ذات شعر أسود كالفحم، وأنا تسحرنى ذهبية الشعر الرشيقة، والنهدان الصغيران اللذان يبرزان بقوة من وراء المشد، وتنطلق بطلاقة معتزة بأنوثتها ، مثل موربيل ، أو كاترينا ، أو كاتيا .

واستكمل الحوار عند مقهى آخر جاء ليأخذنى إليه فى اليوم التالى، يبدو كأنه يعرف مايريد جيدًا ، ويبدوت كمن يقرأ أفكاره بكل دقة ، أخرج لى مجموعة من الوريقات بدا كأنه قد اعتنى بإعدادها بالفعل مثلما يعتنى فى وظيفته بعمل كتالوج لسيارته ، ومدها لى قائلاً :

- هذا هو أنا .

بالفعل ، إنه كتالوج مكتوب بيده يطلب فيه العروس الأنسب بالنسبة له ، يتكون من علة صفحات يتكلم فى الثلاث صفحات الأولى عن هويته كشخص ، اسم عائلته التى باعت ما تملكه من أرض بعد إفلاس الأب الذى قضى بقية حياته فى بيت للمسنين يذهب إليه أبناؤه من وقت لآخر لزيارته، ثم سنه الذى بلغه الآن ، الثامنة والثلاثين ، وأنه الآن قد أقيل من عمله كمصصم مشاريع تسويق للسيارات ، وذلك لانتهاء مدة العمل ، مؤكدًا أنه سيحصل على عمل جديد خلال أربعة أشهر ، ثم أشار إلى أنه مؤهل للزواج، (ملحوظة : مرفق صورة حديثة لى مع هذه الأوراق).

أما الثلاث صفحات التالية فهى عبارة عن مواصفات العروس المطلوبة للزوج ، وبقية الصفحات حول الثقافة الاجتماعية التى على العروس أن تتقبلها اذا جاءت للعيش فى هذه البلاد :

"نحن نسكن فى بيوت صغيرة مريحة، لا نتحمل الضيوف إلا لفترة محدودة للغاية، ونتشارك اقتصاديًا فى تحمل نفقات المعيشة باعتبار ارتفاع

أسعار الشقق، والحياة، والضرائب التى تلتهم من حياتنا نسبة كبيرة من الدخل، وأيضًا التأمينات الاجتماعية والقانونية، والصحية، وارتفاع أسعار العلاج. لكننا فى المقابل نحصل على خدمات عالية الجودة، مما يمكننا من حياة سهلة للغاية".

قلت: كم أتمنى أن تكون لى زوجة فى بلادكم، أنا متفهم تمامًا لهذا النوع من الحياة.

رد: غدًا فى الرابعة سوف نتحرك .. انتظرنى فى هذا العنوان.

يبدأ المرء فى الرغبة فى الخروج من الجنة بعد أن يكون قد عرف تفاصيلها، ولعل هذا هو أحد الأسباب الرئيسية التى تدفع الناس هنا لترتيب رحلات سنوية، وإعداد برامج أشبه بالكتالوجات من أجل السفر إلى العوالم الأخرى، والخروج مؤقتًا من الجنة، ربما بدافع الاشتياق للعودة إليها، مثلما قال لى مارك فوق سطح الفندق، الذى أقام به قبلاً عدة سنوات، عن رحلته إلى فنزويلا: "أحسست أننا فى الفردوس، وأنا أعيش فى عالم مختلف".

وقفت أنتظره عند الجراج الذى أعطانى عنوانه. بعد أن حانت ساعة حضوره شعرت بالقلق، وقفت أخابره فى مقصورة الهاتف، رد: عد إلى الجراج .. أنا فى المبنى الإدارى.

رأيته جالسًا يجرى بعض الإجراءات الإدارية، لم أفهم ماذا يفعل بالضبط، ولم أتخيل أكثر من أنه يوقع أوراق إخلاء طرف من الشركة التى انتهت مدة تعاقده معها، تتبعته يخرج من الجراج إلى ساحة مليئة بشاحنات صغيرة مكتوب عليها اسم الشركة، راح يحيى رجلاً سلمه مفتاح سيارة، لم أفهم ماذا يفعل حتى الآن، أشار أن أركب إلى جواره. سألت:

- هل سنرحل فى هذه السيارة؟
- إنها معنا لمدة أربع وعشرين ساعة.

لم أسأله لماذا ترك سيارته فى نفس الجراج، فلعلها تتبع الشركة، وأنه أيضًا تخلى عنها ضمن إجراءات إخلاء الطرف، بدونا أمام رحلة مختلفة، لم

أعرف ماذا يدور من حولى بالضبط إلا بعد ساعات من بدء الرحلة، فالتساؤلات التى يمكن أن أطرحها ظلت مؤجلة وهو يحاول أن يقدم لى مذكرات تفسيرية عديدة لما كتبه فى الوريقات الأشبه بالكتالوج، لم أعر مايقوله انتباهًا قدر انبهارى مجددًا بالطرق الخضراء، والجبال البيضاء ، ونسق الحياة الذى أحبه كثيرًا ، بعد نصف ساعة دخلت بنا السيارة وسط مجموعة من الأبنية أشبه بمدن الأحلام فى كتب الأساطير، متسقة فيما بينها بشكل هندسى دفعنى إلى مس الهواء للتأكد من حقيقته، وهل ما أنا فيه ضرب من التخيل ، أم الواقع الفنتازى، فلم أعرف الاجابة الصحيحة حول كافة التخمينات الراكلة بشكل مكثف فوق رأسى، وفى مخيلتى . بدا كأنه يعرف المكان جيدًا ، وهو يستخدم مفتاحه فى فك السلاسل الخاصة بركن مثل هذه العربة التى فهمت الآن فقط سبب قيامه بتأجيرها لمدة أربع وعشرين ساعة من أجل نقل أثاث الشقة التى استأجرها هنا ، قريبًا من وظيفته الأخيرة .

- يجب أن أترك هذه الشقة قبل الثلاثاء .

يعنى هذا أن أمامه يومين من أجل أن يترك شقة تفسر ما ذكره فى كتالوج البحث عن زوجة، فالشقة الواقعة فى الدور الأول من بناية مدن الأحلام لا تزيد عن صالة واسعة، وغرفة واحدة بدت مكدسة بأشياء عديدة تلزم أسرة لا يزيد أفرادها عن الشخصين ، ومطبخ صغير يطل مباشرة على الصالة ، قال :

- لن ننقل الثلاجة ، ولا البوتاجاز.. إنها أشياء ثابتة لا تنقل ، ونحن نؤجر الشقة بها .

أدركت أن عليه نقل كل هذا الأثاث من الشقة، وأن يذهب به إلى مكان آخر هو جزء من رحلتنا .

بدا منظمًا مثل الوظيفة التى تركته ، والشقة التى سيتركها ، والوريقات التى أعدها من أجل البحث عن عروس أخرى غير زوجته الإيرانية التى توجد الآن فى بلدها :

- تينا لديها الآن متاعب فى بلادها أخرت عودتها إلى هنا .

وشرح لى نوع هذه المتاعب ، فقد صدمت تينا صبيًّا بسيارتها، ولم يوافق أهل الصبى على الترضية القانونية فيما بينهم :

- ألم تسافر لها للوقوف إلى جوارها فى محنتها ؟

- امرأتى تجيد التصرف هى وعائلتها .

بدت شماتة ما فى نبرته كأنه يتمنى أن تطول الإجراءات فيتخلص من زوجته ، كى تتاح له فرصة جديدة للزواج من امرأة شرقية أخرى :

- ذهبت إلى إيران مرة واحدة ، هى التى قابلت فيها زوجتى بعد أن تعارفنا عن طريق البريد الإلكترونى ، مسألة اختلاف العقيدة لم تكن صعبة ، جلست هناك أمام الإمام وأعلنت أننى مسلم ، واستلمت شهادة بذلك ، وعدت بعد أيام إلى هنا .

لم تكن مشاركته نقل الأثاث أمرًا سهلاً بالنسبة لى إلا وأنا أسمع منه تفاصيل غرامه بزوجته ، وكيف أنها النموذج الأنثوى الذى يبحث عنه : "تعلمت اللغة الألمانية بطلاقة فى ستة أشهر، ثم التحقت بوظيفة تتطلب من شاغلها أن يكون بليغًا فى اللغة ".

ثم بدأ الملل يتسرب إلى حياتهما :" أعيش معها كما الأخ والأخت ؛ لا أعاشرها كالأزواج" .

- ألم تمسها ؟

- منذ عامين ونصف .

- ولماذا لا يتم الطلاق ؟

- القانون يعطينا فرصة طويلة لمراجعة أمورنا ، وحساب مشاعرنا .

- غريبة ، أن يكون هناك رجل وامرأة فى نفس الشقة طوال فترة طويلة دون أن يمارسا الجنس .

- إنها كأختى .

- وحين تدخل الحلم ، ألا تشتاق لرؤيتها ؟ ألا تتخيلها ؟

- أخبرتك أننا كأخ وأخته .

لم أستوعب ما يقوله ، وأنا أدفع معه السجادة الإيرانية الضخمة ، لم أفهم التناقض الهائل بين الحرية المزعومة فى العلاقات ، والقيود الاقتصادية المحوطة بالطلاق، كالأمر الذى دفعه للمجيء إلى هذه الشقة والعيش وحده، لم أسأله إن كانت تينا قد عاشت معه هنا أم لا حتى لا أستمع إلى المزيد من الإجابات الفنتازية، ولأننى رحت ألهث من الثقل الشديد للسجادة الإيرانية التى رمينا بها من أعلى الشقة ، ثم نزلنا إلى الساحة لنقلها بمجهود يفوق طاقتى إلى داخل الشاحنةالصغيرة التى استأجرها لمدة أربع وعشرين ساعة ، بدا غير آسف على الشقة وهو يقفل أبوابها، ربما لأن أمامه يومين آخرين للعودة إليها والبقاء فيها ، قال :

- سأوزع الأثاث فى بيوت عديدة .

الليل يزحف، والمطر ينهمر، وقصته الغريبة تغالب النوم المسيطر على جسدى وأنا أستمع إليه والسيارة تعبر بنا من نفق إلى آخر من الأنفاق المحفورة أسفل الجبال ، كأنها مراحل الحياة، نعبر من واحدة منها إلى أخرى من خلال أنفاق غير مرئية، تبدو الليالى متشابهة دائمًا مهما كانت المدن أو القرى، فالظلام المغموس بالمطر، يجعل المكان داكنًا، والدرب أشبه بممرات المستحيل، لايمكن لأحد أن يجتاز بسهولة إلا من يألف دروبها ومجاهلها .

أبلغنى أنه حائر ، رغم أنه يبدو واثقًا فى طريقه ، اجتمعت كافة النساء اللائى مررن بحياته إلى جوارنا فى المقصورة المغلفة بمياه المطر الغزير، بدا الطريق طويلاً ، وعندما بدأت أستمع إلى حكايات تقليدية متشابهة، فكل رجل منا مر بمثل هذا النوع من العلاقات، بلغنا أول مدينة يجب ولوجها فى طريقنا ، مدينة بدت نائمة منذ ساعات، أرقدها المطر الصيفى فى ساعة مبكرة، وساعده فى ذلك أنها مدينة صغيرة يجد أبناؤها فرصتهم الأفضل فى التواجد حين يركنون إلى وحدتهم أو إلى أسرهم الصغيرة .

قال : أختى تسكن هنا .

لم يتوقف المطر تحية لنا ونحن نتوقف أمام المنزل القصير الذى تسكن فيه أخته ، نزلنا لتحيتها حين وقفت أمام باب شقتها، بدت فاتنة الجمال رغم سنوات الأربعين المرتسمة على قامتها العالية ، الاشبه بقامة ابنها الذى خرج لتحيتنا، قائلاً :

- جريجور .

أغشانى جمالها قبل أن تعود إلى الشقة دون أن تنتابها أية رغبة فى دعوتنا حتى لاحتساء مشروب ساخن فى هذا الجو الذى قرر أن يستمر على حاله، ورغم أننا قد اقتربنا من منتصف الليل، تمنيت فجأة أن يكون لى بيت فى هذه البقعة من العالم، بينما انشغل جريجور بمساعدة خاله فى نقل التلفزيون إلى داخل الشقة ، ووجدت أن أنسب شىء أفعله هو العودة مرة أخرى إلى المقصورة .

لم تكن لدىّ أية رغبة ، أو قوة فى مساعدتهما، رحت أرقب المكان الواقع تحت سطوة المطر، وتساءلت كيف يكون الحال فى الشتاء . قالت لينا :"فى السويد تزداد حدة الانتحار شتاء بسبب سيادة ظلام الليل والشتاء الذى يبدو كأنه قرر البقاء" .

وعندما استأنفنا المسير صرنا ثلاثة أشخاص فى المقصورة ، بعد أن انضم إلينا جريجور منتهزًا إجازته الصيفية كى يذهب لمساعدة خالة فى إيجاد أماكن مناسبة لتخزين أثاث منزله المتناثر، سمح لى جريجور بالنوم ، بعد أن توقف المطر فجأة ، وانشغل كرستيان مع ابن شقيقته الحسناء بالحديث بلغتهما عن أمور عديدة لم أتكهن بالضبط هويتها، وتنبهت فجأة إلى المدينة التالية التى تبدو كأنها ستخلع ملابسها لكشف ماتتمتع به من فتنة ، لكننى سرعان ما أكتشفت أننا توقفنا لتناول العشاء فى مطعم ضخم داخل سوق كبير، يطل على الطريق. بدا المكان خاليًا من المسافرين الذين يتوافدون هنا لتناول الطعام، بينما لفتت انتباهى تلك المجلات الخليعة المعلقة وسط مئات العناوين من المجلات، بدت المجلات كأنها تدارى نفسها فى استحياء، وكشفت عن جرأة نساء يمارسن الحب أمام كاميرت كأن

الجنس أشبه بكافة أمور الحياة الأخرى ، لا تمارس فى الغرف المغلقة ، بل تخرج إلى الناس فى كل مكان .

إنها الحياة .

واكتشفت أن الجنس مذكر .

وأنه يلج فى حياتنا،مهما تعاملنا معه على أنه المشروع المعيب، نتكلم عنه فى سرية، ونضع أصابعنا على أفواهنا ونحن نثرثر حوله، ونغلق أعيننا بأصابع مفتوحة ونحن نشاهده فى مختلف أشكاله .

وأخذتنا السيارة مجددًا والهبتنى الشطة الحارة فى الدواجن التى التهمتها فاضطررت إلى أن أصحو لأرى الليل بشكل أفضل ، لكننى ما لبثت أن أعدت اكتشاف أن غطاء الليل الأسود يجعل كافة الأماكن متقاربة ، وأن الأضواء الصناعية التي تملأ الأنفاق قد تبيد وحشة الإحساس بالليل ، لكن ذلك لا يستمر طويلاً .

قال لى وهو يفتح باب الشقة :

- هذه شقة تينا . عشت معها طويلاً .

فهمت من جملته أن تينا اشترت الشقة من عملها كمبرمجة فى إحدى المؤسسات الدولية ، وأن هذا أعطاها إحساسًا أكثر بالاستقلالية ، لم تبد كلماته عنها مصحوبة بأية مودة ، لكن شقتها بدت أقرب إلى ما ذكره فى كتالوج الزواج بأنها لا تحتمل ضيوفًا لأكثر من أيام قليلة . لذا كان علىّ أن أنام فى الصالة بعد أن افترش من أجلى حاشية صغيرة ، بينما اختار جريجور إن يتمدد فوق الأريكة .

هل يمكن للمرء أن يستكين للنوم فى مثل هذا المكان دون أن يقرأ هويته ؟. فمن الواضح أن تينا جلبت وطنها إلى هذه الشقة الصغيرة ، (الشقة مؤنث) فأرفف المجلات مزدحمة بمطبوعات إيرانية ، مكتوبة بحروف عربية، والقرآن الكريم موجود فى أماكن عديدة بأحجام مختلفة ، وتحف إيرانية متناثرة فى المكان ، إنها تفرض نفسها على العينين المعجونتين بالفضول، لقد استطاعت تينا أن تعيش هنا، وأن تنقل حضارتها الشرقية

إلى شقة صغيرة، تحاول فيها الاحتفاظ بزوجها ،الذى يدعى أنه لم يضاجعها قبل عامين . ذكر لى تاريخ اليوم والعام ،وأكد أن ذلك كان ليلة الجمعة .

لماذا ننام ونحن فى هذه المدن ؟

ترى هل سنعرف النوم عنما ندخل الفردوس ، على الأقل فى الأيام الأولى ؟

أخذت أقل كفاية من النوم قبل الخروج إلى النافذة الصغيرة المسدودة بطبق فضائى ضخم ، كرهته، وأنا أتطلع إلى بقايا ضباب النهار الباقى من المطر الذى غطى المدينة طوال الفترة القصيرة التى استهلكناها نومًا . بدا الفردوس فى كافة فخامته ، وسطعت الشمس، ليردد كرستيان :

– نهار سعيد .

إنها فرصة من أجل رؤية سحر الشرق ممزوجًا بالغرب ، فقد استطاعت تينا أن تقيم بيتا نموذجيًا ، دون أن تفتقد وطنها كثيرًا ، تجولت فى المكان الضيق ، وأنا أشعر بالسعادة ، وبأننى لو حلمت أن أعيش فى مكان بقية حياتى ، لاخترت هذا البيت الذى يطل مباشرة على غابة ضخمة يعلوها جبل تخترقه السحب فلا تبلغ قمته بسهولة .

قال كرستيان :

– علينا أن نستكمل نقل الأثاث .

يبدو كل شىء معدًّا سلفًا من أجل راحة السكان ، ففى مواجهة ضيق مساحة الشقق ، توجد أسفل كل بناية مخازن يضع فيها السكان ما لديهم من فوائض قد يحتاجونها فى أوقات أخرى ، كما أن هناك قاعات للغسيل، بها غسالات متفاوتة الأحجام ، لأغراض متعددة .

راح جريجور يؤدى مهمته التى أتى به خاله من أجلها بينما بدت مهمتى هى البحث عن وسيلة للتوغل إلى أقرب مسافة فى الغابة وملامسة الأبقار التى تتحرك فى حرية، وتترك الغربه يتحسسونها، كأنها أنثى مطلوبة لإشباع نفسى خاص، واكتشفت حقيقة عملية اللقاء الجنسى بين الجبل المذكر، والغابة الأنثى ، وأن الغابة أيضًا مؤنث، وأحسست أن

مفاهيم جديدة تتغير داخل المرء، وأنا أتعامل مع الطبيعة من حولى بمنطق الذكر والأنثى، والولوج، إنها أشياء تقلل من الإحساس بالمحرمات والممنوع، فعندما يضاجع الجبل الغابة فإنهما ينجسبان مثل هذا المشهد الساحر، وتمتزج قمم الجبل بالغابة، وحيواناتها. رأيت كرستيان يقترب من المكان وكأنه يقرأ حالة الشبق التى أحسها ناحية الغابة، وأننى أتمنى لو كنت مكان الجبل . لم أشأ أن أشرح له المفهوم الذى سبق أن أدركته يومًا بأن الجبل أكثر خلودًا من البشر، ولو تسربت إليه المشاعر، لأحس أنه أفضل من البشر الهالك . ترى منذ كم مليون من السنوات وهو قابع فى مكانه، وماهى حدود الأسرار التى عليه البوح بها لو قرر النطق لعدة ساعات ، لم يفهم كرستيان المعنى الذى نقلته إليه عن الجبل ، بدا مهمومًا بالأثاث الذى قرر أن يفتته فى العديد من الأماكن المتناثرة فى أنحاء المدن والقرى ، هاهو ذا يوم جديد، كل شىء فيه محسوب بالساعات. فعلى العربة أن تسلم إلى الشركة التى استأجرها منها قبل الساعة الرابعة حتى لا يدفع غرامة تأخير موقعة فى العقد .

فهمت الآن أشياء كثيرة عن حدود علاقات رفيق رحلتى ، فالسيارة مستأجرة من شركة عادية ، وليست الشركة السابقة التى كان كرستيان يعمل فيها. كما أنه يسكن فى هذه الشقة مع زوجته ، أما الشقة التى تم نقل الأثاث منها فقد استأجرها لفترة تسعة أشهر عندما التحق بفرع الشركة فى المدينة التى بها الجامعة، ولعل هذا هو السبب لالتحاقه بالجامعة، من أجل إتقان اللغة .

مسكين هذا الأثاث المتناثر، يبدو كأنه لن يلتقى مرة ثانية، دفعتنا العربة إلى داخل المدينة، لنصعد إلى شقة ماهناس :

- هذه ماهناس .. إيرانية .

حيتنى بمودة وأنا أتأمل فتاة شرقية استطاعت أن تتكيف تمامًا مع المدينة التى تعيش فيها ، وتعمل فى وظيفة مرموقة . أفهمنى كرستيان أنها ليست صديقة لامرأته ، وأنه سألها الاقتران به، لكنها ودت عيشة الحرية .

يعيش إيرانيون كثر فى المدينة بعد الهروب من بلادهم عقب ثورة الخمينى. أفلتن من الشادور، والعباءة الإجبارية السوداء.

بدت جميلة البشرة، لكنها استطاعت التخلص من عادات كثيرة ورثتها عن بلادها، بدا هذا فى ملابسها، وديكور منزلها، الذى مزج بين البساطة فرصعت بيتها بالعديد من القطع الشقية.

ترى ماذا يريد هذا الرجل الأحمر الشعر بالضبط. إنه يود لو اقترن بكل نساء الشرق، من كافة الألوان. قلت:

- غريب من امرأة شرقية أن تفكر فى أن تعيش وحدها.

وفهمت المعنى الذى لم أشأ أن أنقله إليه، فالمرأة هنا ليست فى حاجة إلى حماية من رجل، إنها تحتاجه فى أشياء بعينها كالجنس، لكنها تجد أن حريتها أثمن من ارتباطها برجل حتى وإن أحبته، مثلما قال بيير ونحن نجلس قبل أيام عند المقهى:

- بعد خمس سنوات من الزواج قررنا أن يعيش كل منا منفصلاً.. من أجل أن يستمر الحب. نلتقى فى الأسبوع ثلاث مرات.

يا لشكل الحب فى مثل هذه الحالة! لكن ترى من هو كرستيان حقًا، وهل هو الملل الذى تسرب إلى امرأته، أم أنها مثل صديقتى مها التى سافرت قبل سنوات والتقت بشاب ألمانى أكثر وسامة من كرستيان، وأسمى نفسه عبد الله، وانفصلا بعد أن حصلت على جواز السفر الألمانى، وتزوجت من شاب مصرى مقيم هناك منذ سنوات طلب منها العودة إلى بلادها بعد أن أنجبت منه ابنتين، خوفًا أن تتربيا فى أجواء الغرب، وظل هو هناك؟

غريب قانون الرجل، وقانون ماهناس. وقانون تينا التى لم أر صورة لها فى شقتها كى أستطيع أن أكون رؤية خاصة بذوق كرستيان، لكنها على كل حال لن تختلف كثيرًا عن ماهناس، لاقتراب الذوق فى تنسيق البيت.

شىء ما يتبدد أمامى، وبيت يتشتت، ويتناثر، وهاهى ذى المحطة الأخيرة التى ينقل إليها كرستيان الأريكة الضخمة، والسجادة الإيرانية..

وقف صاحب الورشة بين العديد من قطع الغيار القديمة يحاول أن يبحث عن مكان مناسب يضع فيه أشياء تحتاج إلى مساحة ، بينما رحت أنظر إلى الحائط المزدحم بصور مطربين شباب غير مألوفي الوجوه . سألته :

- أنت يوناني .. أليس كذلك ؟

هز رأسه ، وتركني أستمع إلى الكاسيت الذى يذيع واحدة من أغنيات أحد هؤلاء المطربين ، ينقل كل مهاجر وطنه معه إلى حيث ينوى الاستقرار، ويغطى الحوائط بما يفصله عن المدن التى جاء منها ، حتى إذا رحل عنها حاول استجلاب حنينه بأى ثمن .

واستقرت الأريكة الضخمة فى مستقر لها لا يعرف أحد من الذين وضعوها فى هذا المثوى إلى متى ستبقى هناك ، بدت كأنها ستدفن هناك لأطول فترة ممكنة ، حين يعثر كرستيان على وظيفة، ثم شقة ، وزوجة ربما يتمكن من اختيارها من بلاد الفراعنة .

وخلت الشاحنة الصغيرة من عبئها الثقيل ، لكن كرستيان بدا كأنه يحمل همًّا ثقيلاً لم أستطع أن أمنعه عنه . بدا صلدًا ، غير آبه لما وزعه فى سبعة أماكن متفرقة، هل يمكن جمع رميم هذا الأثاث يومًا ؟

لا أعلم .

وبدأت رحلة العودة . وقفت السيارة أمام بيت شقيقة كرستيان من أجل توديع جريجور، وجدت نفسى فى المقصورة أبتسم للصبى الذى قال :

- أنا هانس .

صافحته بحرارة وقلت :

- لماذا لم تأت معنا ؟

رد : لم أكبر بعد. قالت أمى إن جريجور فى مهمة خاصة بالكبار .

وبعد قليل قلت للخال والعربة تندفع بنا نحوالجنوب مرة أخرى :

- هانس صبى ساحر.

وعاجلته بسؤالى :

- هل أختك متزوجة ؟

أجاب بالنفى ، وضحك كأنه يرد على سؤال لن أسأله أبدًا :

- لم تتزوج قط .

- هل هما أبناؤها ؟

- نعم . جريجور ليس شقيق هانس.

والتزمت الصمت ، وتركته يفك هذا اللغز الغريب، ففعل وهو لا يزال يضحك :

- كل منهما ثمرة علاقة أقامتها مع رجل عبر حياتها لبعض الوقت ثم غادر البيت .

وبعد أن قدم لى زجاجة المياه الغازية ، قال :

- أعرف أنكم تسألون فى الشرق كيف نسمى الأبناء .. أختى لم تتزوج من أى من الأبوين ؛ لذا لم تكن هناك مشكلة أن نمنح الولدين اسم عائلتنا .

سألت :

- هل فى حياتها الآن رجل ؟

بفخر قال :

- لا أعتقد .. إنها امرأة تحب الاستقلال .

الأنثى الثامنة

ترى ماحدود سحر العلاقة التى تربط بين التلميذ وأستاذته؟

فى فيلم "الأعراس البيضاء" كان هناك رجل واحد فى حياة التلميذة ، إنه مدرسها الذى هوست به رغم فارق السن الكبير بينهما ، ورغم أنه متزوج ، وأن الاثنين يسكنان نفس القرية الصغيرة ، حتى إذا فاحت علاقتهما ، وشاهدهما بعض التلاميذ يحولان القمطر إلى فراش ملتهب ، تم نقل الأستاذ من المدرسة إلى منطقة نائية ، ورفت الفتاة من المدرسة ، فاختارت أن تهرب إلى نفس المدينة التى بها حبيبها ، وسكنت إلى جوار المدرسة التى يعمل بها ويعيش وحيدًا بعد أن انفصلت عنه زوجته، وتعمدت الفتاة ألا يعرف حبيبها أنهاعلى مقربة منه ، وماتت مريضة دون أن يعرف الرجل الأكبر سنًّا إلا بالصدفة أن هناك صغيرة ماتت وأنها حرصت دومًا أن تكون على مقربة منه .

قصص تتكرر من حولنا بأشكال مختلفة ، فى أفلام ظلت تطارد مخيلتنا كلما شاهدناها ، مهما كانت جنسيات الناطقين بها .

هل من الممكن أن أقع فى غرام مدرستى " موريل" وأن أفتح قصة حب لم تكن فى صفحتى من قبل ؟

عندما سألت كرستيان : هل تعجبك أنثى من طراز موريل ؟

رد : لا .. بالطبع.

واندهشت . فالفتاة يمكنها أن تلهبنى أحاسيس متدفقة. لا ، ليس هذا صحيحًا، فهى مدرستى. حتى وإن كانت تصغرنى سنًّا. نعم إنها المرة الأولى التى تقوم فيها أستاذة تصغرنى بالتدريس ، أنا الذى اعتدت أن يكون المدرس أكبر سنًّا ، وأن يكون هناك حاجز زجاجى يفصل تمامًا فيما بيننا .

فى الساعة الأولى من الفصل الدراسى الصيفى رأيتها لأول مرة واقفة أمام السبورة ، لا تقل عمرًا عن الفتيات الصغيرات اللائى ستقوم لهن بالتدريس ، مما أشعرنى أن هناك نشازا فى لحن حاولت المشاركة فيه بدافع البحث عن قصة حب جديدة أنسى بها كل من ميليسا ومارينا .بدت أصغر من أن تكون مدرسة لشخص مثلى، وهى تطلق تحية الصباح بتلقائية جعلتنى أشعر أنه من الأفضل لرجال فى مثل سنى أن يقرروا العودة إلى سن التلمذة ، من أجل أن تذوب كل ركلم السنين والتجارب السخيفة، وأن يعيشوا بعض الوقت فى مثل هذا العالم .

قالت :

– اسمى موريل ريبو ، أحمل جنسيتين ولا أعيش فى هذه المدينة ، فأنا من جنوب فرنسا ، وهذه هى أول مرة أقوم فيها بالتدريس .

ليست مثل أحد من الذين مروا بحياتى من قبل، لا فى شكلها البسيط، ولا فى تلقائيتها وصدقها المتناهى، لا أستطيع أن أصفها مثلما يفعل عباقرة الوصف الأدبى مثل توماس هاردى، لكنها أقرب إلى قطعة الحلوى فى محل حلويات ، بل ما أسخف التشبيه، لا إنها أقرب إلى عرائس المحلات ، نعم ، ما أشد بعد هذا عن تلك الحورية الواقفة أمامنا تقدم لنا نفسها وتتعرف على كل واحد منا على طريقتها بحيث يمكنها أن تحفظ كل الأسماء من المرة الأولى رغم صعوبة أسماء كثيرة منها ، وعلى رأسهم اسمى .

حورية . لم يرأحد منا حوريات من قبل ، وإن كان لخيالنا الحق أن يجسدها كما يتراءى له ، لكن عندما تقف فتاة من طرازها أمام السبورة فإن الوجدان يردد على الفور : إنها حورية .

فى قصص الحب يحاول البعض أن يجد تعبيرات عديدة يلف بها ويدور من أجل إبلاغ الطرف الآخر أنه مغرم به ويموت جنونًا من أجله ولايحتمل الحياة بدونه، وأنه يفتقد كل المعانى بدونه ، لكنه يستجمع كل عبارات الدنيا فى كلمة واحدة تختصر كافة قواميس المشاعر الرائعة" أحبك"..

يا إلهى ، فـ "الكلمة" أيضًا مؤنث تنطبق عليها كافة قوانين الأنوثة فى

الدنيا، يمكن ولوجها واختيار الوضع المناسب للتواصل معها، ووصول الذروة بها ولها، وهى هدف فى حد ذاتها .وهى شهوة حين نمارسها، و"الشهوة" أيضًا أنثى تسير عليها نفس النظم.

ترى كيف أصفها، هل أقول إنها قصيرة الشعر الذى يمزج بين الصفرة والبنية . أم أنها متوسطة الطول كأنثى ومثل هذه العبارات الركيكة التى استهلكها من وصفوا لنا نساءهم من قبل، إنها بكل بساطة تشبه "موريبل ريبو"، قد لا تلفت نظرك فى الشارع حين تسير وسط كل هذا الحشد الساحر من الحسناوات، خاصة أنجلينا، لكنها إذا وقفت أمام السبورة استعارت كل الفتنة من الدنيا ورمتها عليك من أجل أن تدخل إلى دائرتها الدوامية فلا تستطيع الخروج منها سوى باستئذان ملىء بالإلحاح.

أكتشف أن معانى مفردات القواميس تدفعنى إلى إعداد قاموس بمفردات الأنوثة وحدها دون غيرها فتصبح "الفتنة" و"الدوامة" و"الدائرة" أيضا من بين أبرز عبارات قاموس الأنوثة فى حياتنا. قررت وأنا أتوصل إلى هذا الاكتشاف أن أعد قاموسًا بهذه المفردات، وسوف أكتشف أنه يجب استبعاد "المكر" و"الشر" و"النفاق"، و"الكفر"، و"الرياء"، و"التملق"، و"الفراق"من قاموس أفعال الحب، والمؤنث، لأنها جميعا مذكر.

قالت :

– أنا المسئولة عن الفصل ..سنلتقى يوميًّا ثلاث ساعات لدراسة قواعد اللغة، عدا أيام العطلات.

بيد أن القدر قد اختار كلاًّ منا للآخر طوال فترة الدراسة الصيفية، لكننى لا أنظر إليها سوى أنها تقوم بالتدريس باعتبار أن كل من قاموا بالتدريس لى كانوا من الرجال، وأن المرأة الوحيدة التى فعلت ذلك قبل سنوات كان من السهل حذف اسمها من قاموس الأنوثة دون مراجعة تذكر.

راحت تتعرف إلينا طوال الساعة الأولى، وتدفع كل منا للحديث عن وطنه ومهنته، بدا ذكاؤها فى أنها تحاول التعرف علينا أفضل، وراحت

شفتاها تتمتم أسماءنا مجددًا كأنها تؤكد قدرتها على الحفظ من المرة الأولى . كما بدت كأنها تضع كل منا فى اختبار حقيقى لتحديد مستواه ، باعتبار أن الامتحان الذى جمعنا فى هذا الفصل لا يعتبر كافيًا، كما بدت كأنها تدفعنا لسماع "نطق" بعضنا البعض لهذه اللغة التى جئنا لنتعلمها فى أسابيع قليلة .

قالت بعد انتهاء الساعة وهى تقف قبالتى :

- مستواك أعلى من هذا الفصل .. اذا أردت أن تنتقل إلى فصل آخر فسأكتب وريقة بذلك .

قلت بكل جيشان :

- أحب أن أبقى هنا .. معك .

لم أكن أغازلها ، فلو أنها رددت نفس الكلام لبقية الفتيات الجميلات القادمات من أربع عشرة دولة لقلن نفس الكلام ، بنفس لون المشاعر الخضراء ، ولفعل ذلك أيضًا أصحاب" المذكر" قليلو العدد فى الفصل .

كنت قد اخترت الجلوس فى الصف الأول من الفصل، وحرمنى تأخير لينا فى الوصول إلى الفصل من أن تكون إلى جوارى، فشغلت مكانها فتاة لا تقل جمالاً عنها قادمة من أوكرانيا، أبلغتنا أن اسمها "كاترينا" .

قلت للفتاة السويدية فى أثناء فترة الراحة بين الدرسين :

- تأخرت ، هل تسكنين بعيدًا ؟

- كنت أبحث عن اسمى فى الجداول .. موريل أستاذة رائعة ، نحن محظوظون بها .

وفى الساعة التالية ، بدت فعلاً المدرسة التى تطلب من تلاميذها فتح الكراسات ، والتدقيق فيما تكتبه على السبورة ، وحل تمارين القواعد ، وعمل الواجب المنزلى من أجل مراجعته فى اليوم التالى معًا ، واستغرق هذا الأمر ساعتين كاملتين لم أرفع عيناى عنها ، من أجل أن أفهم لكننى وجدت اللغة كما تنطقها ساحرة ، مؤنث، بسيطة ، تدفعنا إلى انتظار اليوم الدراسى التالى رغم أن المدينة فى إجازة صيفية، وأن المرء لم يأت للدراسة

إلا كـى يكون فى محيط ملىء بالجميلات من أجل أن تكون له رفيقة طوال فـترة إقامـته هنا حتى وإن كان ينتظر وصول حبيبته مارينا القادمة فى أقرب طائرة بعد الحصول على الفيزا .

دفعتـنى هـذه الأفكار ، بعد الظهيرة إلى التردد بشدة وأنا أقف أمام أحد محـلات الأزياء إلى الدخول من أجل إبلاغ تلك الحورية التى تتفحص رداء ثميـنًا أنـنى زميـلها فى الدراسات الصيفية ، وأننى رأيتها فى أثناء الاختبار، لكـن مـا أسخف الكثير من الأفكار التى تدفعنا إلى هذا السلوك، رغم أن آخـرين يمكـنهم أن يتحيـنوا هذه الفرصة فيفعلون ماجبنت أنا عن الإقدام عليه .

وانـتظرت صـباح اليـوم التالى وأنا فى حيرة الاختيار، فكل هذه الهدايا الفـرعونية قد جلبت أغلبها من أجل مارينا ، لكننى اختلست قطعتين منها وترقـبت دخول موريـيل .كنت سعيد الحظ الأول هذا الصباح عندما دخلت الفصل قبل الجميع ، ناديتها كأننى أختلس شيئًا من الآخرين :

- موريـيل ، صباح الخير.

رأتنى أمد لها بتمثال صغير لجعران أسود وأشرت إليه قائلاً :

- هذا التمثال يجلب الحظ ، إنه لك . من مصر.

دهشة غير متوقعة بدت مرسومة على ملامحها ، وهى تهتف :

- رائع !

- إنه لك .

- لا .. لا أصدق. لكنه غال .

- أحضرته من أجلك .. كأننى سأقابلك .

وضـمت الجعران بقوة بين راحة يدها اليمنى كأنها تعتصر منه كل الحظ الذى تأمله فى حياتها ، وقالت :

- شكرًا .. كم أنت لطيف. هل يمكننى أن أقبلك ؟

وأنـا أكتشـف لأول مـرة فى حياتى أن "القبلة"هى من أولى الكلمات المؤنـثة فـى الحياة. طبعت قبلة على وجنتى اليمنى ، وأنا أغمض عينى، وقد

جاءت ميليسا من بلادها البعيدة لتطبع قبلة مشابهة فى العام الماضى عندما منحتها هديتى الفرعونية الأولى فكانت أول كلمة حب فى قصة لا تزال تنبش فى أعماقى وكانت السبب الأول للعودة إلى نفس المدينة .

وأسرعت بانتهاز الفرصة من أجل الحصول على القبلة الثانية :

- وهذه .. إنها أيضًا لك .

ونطقت اسمى على ما تكون الأسماء الأجمل فى الدنيا. وأمسكت بالسوار المصنوع من الحجر وأنا أقول :

- هذا إنه من نفس الأحجار التى صنعوا منها الهرم الأكبر .

وفازت وجنتى اليسرى بقبلة من نفس الطراز الذى حصلت عليه زميلتها ، وهى تعبر عن إعجابها ، ودهشتها، لكن الشعور الحقيقى بالامتنان تمثل فى أن تضع السوار حول عنقها الأبيض الفاتن ، واحتفظت به فى مكانه فبدت لأيام طويلة كأنها تتيمن به ، أو كأنه الهدية الأولى التى حصلت عليه مدرسة من أحد تلاميذها .

تذوب رائحة القبلات ، ويتلاشى مذاقها وسط زخم البشر الذين نتبادل معهم مثل هذه اللمسات الخارجية التى تعنى المودة، لكن قبلة موريل ، تبقى ندبة محفورة فى مكانها مهما طبع الآخرون من قبلات فى نفس المكان ،وكأن هذا الجزء من الخد قد تم تسجيله فى شهر القبلات الودية من أجل موريل، ولا غير موريل .

وسرعان ما امتلأت القاعة بتلاميذها ، وجلست كاترينا إلى جوارى ، معلنة عن فشلى فى التقرب إليها وكأن علىّ أن أحاول من جديد ، بدوت كمن يتصرف كأن نساء المدينة جميعهن صرن بلا ملامح أو وجوه، وأننى يجب أن تكون لى "واحدة" يمكن تركيب ملامحها واسمها فوق جسدها فيما بعد، قد تكون مارينا ، أو كاترينا، وربما موريل ، أو أنجلينا، أو النسوة مجهولات الأسماء اللائى نلتقيهن عند محطات الترام أو عند البحيرة، أو فوق الأرصفة التى تنقل أقدامنا فوقها .

تبدو مدرسة غير مألوفة، تعلمنا قواعد لغتها بدون الرجوع إلى كتاب

الجامعة ، تستنطق كل منا أسلوبها فى التعرف على اللغة من خلال الآخر، أعطتنى فرصة أن أعبر لها عن نفسى لو كنت من سكان أوكرانيا حين طلبت أن يتقمص كل منا هوية زميله فى القمطر، فسميت لأكون أوكرانيًّا أتحدث عن بلدى أوكرانيا، وأشرح لماذا أحب العيش فيها ، كما لقنتنى كاترينا المزيد من المعلومات عن وطنها وراحت تتكلم بدورها باعتبارها مواطنة منحت فى الحصة الهوية المصرية ، نجحت موريبل أن تحولنا إلى أطلس إنسانى فبدونا كأننا نتقارب فيما بيننا ، ورغم الفترة القصيرة التى نقضيهاالآن معًا، لم يكن هناك فى الفصل سوى سحرها ، وجاذبيتها ، رغم الساقين الجذابتين التى بدت عليهما "لاى" التى لا أعرف لماذا يطلقون على الناس فى بلادها أنهم من الجنس الصفر، فهى تملك من السيقان مايجعلها تنافس مارلين ديتريش التى لم تتحدث الصحافة عن أية خليفة لها بعد اختيارها كصاحبة أجمل ساقين عندما قامت ببطولة" الملاك الأزرق" قبل سبعين عامًا .

وأعطتنى موريبل الفرصة أن تدخل كاتيا فيما بينى وبين كاترينا بعد أن حملت أدواتها ، ذات صباح، وجاءت للجلوس بجانبى فبدت كأنها تعلن انتهاء كافة محاولاتى للتقرب منها بعد أن لاحقنى الفشل فى أن أجعلها تستجيب لى، وهى التى لا ترفع رأسها عن كراسة اللغة الفرنسية فى أثناء لحظات فراغها بين الحصص، فلم تتخذ رفيقًا أو زميلة من بيننا . فى الدقائق الأولى من الحصص الصباحية تنقل إلينا موريبل ، كأنها مذيعة نشرة أخبار، مايجب أن نفعله من أنشطة ، بناء على ما تضعه إدارة الجامعة من أنشطة للطلاب الصيفيين . سألتها :

- هل سوف تذهبين معنا ؟

تمنيت أن تكون معنا فى أثناء الرحلة التى طلبت منا أن نشترك فيها إلى قصر الأديبة مدام دى ستايل ، ورحت أرى الجبال الخضراء فى أثناء العودة بعينى المتحدث إلى الطبيعة بلسان موريبل .

سألت فى الصباح :

- هل أعجبتكم الرحلة فوق البحيرة ؟

قلت : كان ينقصها شيء .

وارتسمت ابتسامة الحورية على شفتيها ، ردت : شكرًا .

ثم بدأت تتحدث عن التعليمات الجديدة :

- اعتادت إدارة الجامعة، كما قرأتم فى لوحة الصباح، إقامة حفل استقبال للطلاب، وأنتم مدعوون للحضور .

بابتسامة الحورية أكدت لى وهى تهز رأسها أنها ستكون هناك، فى الحفل الذى يقام بعد يومين .

وراح الانتظار يلازمنى فى مدينة كم تمنيت ألا يمر الزمن بجدرانها ، مثلما سيحدث للهانئين من سكان الفردوس، فها هى ذى مارينا تعدنى من جديد بقرب الحضور، ووجدت نفسى أنتظر جودو الذى لم يقرر مغادرة مكانه أبدًا .

هناك شيء ما بالغ الخفاء بدأ يربط بينى وبين موريل ، تعبر عنه بكلمات أحيانًا فى مدينة تتسم بشجاعة عشاقها، تعرف الحب، لكنها لا تحترم الشفاهى منه، مسافة زمنية تفصلنى عن ممارسة أية شجاعة للاقتراب من موريل ،أهمها أنها مدرستى، وما أنا سوى واحد من آلاف الطلاب الذين مروا، وسيمرون أيضًا ، فى فصولها، ولايمكن فى كل فصل أن يغازلها واحد منهم ، بدا كل منا حين التقينا فى حفل الاستقبال فى أفضل لياقته من أجل الآخر، تبحث عينا كل منا عن الآخر، حتى إذا وقعت عليه أسرع بإخفاء شيء ما عنه ، كأنما نخشى أن نحطم حاجزًا ما تعلو درجاته تبعًا لظروف كل منا ، فنحن غرباء عن المدينة ، وأمامى أسابيع للمغادرة ، كما أنها مدرسة فى جامعة عليها أن تتصرف كأنها أستاذة للجميع ، لكننى أجدها أنسب نساء المدينة لتكون معًا ، مهما كان شكل العلاقة فيما بيننا .

قلت : هذا أستاذى .. مدرس سابق فى نفس الجامعة .

رحت أقدم لها أستاذى الذى حببنى فى المدينة وساعدنى فى الحضور إليها أكثر من مرة . بدا ودودًا وهو يحدثها عن ذكرياته وسط الطلاب طوال

ربع قرن ، تركتهما يتكلمان ، بينما تختلس عينانا بعض الكلمات العابرة كأنها تود أن أكون محدثها مثلما أتمنى .

وبدأت مراسم الاحتفال باستقبال الطلاب الصيفيين ، وتتابعت كلمات عميد الجامعة، ووزيرة التعليم ، وعمدة المدينة ، وهي تقف في الركن المقابل ، لا أستطيع أن أجد وسيلة أنسب للتقرب إليها ، حتى لا أفتقدها ، ولا أحول وجهتي إليها ، كم تمنيت أن ألحق بها في حمامات السباحة التي تذهب إليها في إجازة آخر الأسبوع ، لكنني لم أعثر عليها ، ولم أجرؤ أن أسألها أين حمامها المفضل ، كي أتبعها إلى هناك" النسه يفضلن الرجل الجرىء " لكنها ليست نسله بالنسبة لى ، إنها المدرسة الجذابة موريل .

هذه المرة واتتنى الشجاعة لأفعل ماوجدته سخيفًا في المرة السابقة، حين وقفت أمام محل الأزياء مترددًا هل أقدم نفسى لتلك الفتاة من أجل أن أبلغها أننى زميلها في فصول الدراسات الصيفية .

- رأيتك في الأسبوع الماضى في محل أزياء .
- آه .. لم ألحظك .. لماذا لم تكلمنى؟
- كنت منهمكة مع رداء أسود .
- هذا هو .. لقد اشتريته .
- فعلاً .. إنه هو .. بالغ الأناقة ..

جميل مثل صاحبته.. يعلن أنك الأكثر أناقة هنا.

- ها .. ها .. شكرًا ، أنت لطيف. من أى بلد أنت ؟
- مصر .
- وأنا من فنلندا، بلاد الجليد والليل الدائم .
- رجل من بلادكم كتب أشهر رواية عن بلادنا"سنوحى المصرى" .
- ميكا فالتاراى .

كنت أعرف أن عينا موريل تتبعانى ، لكن المسافة التى تفصلنى عنها لا تجعلنى أتأكد من درجات القلق التى تنتابها . قلت لمحدثتى الفنلندية التى تنافس فى جمالها شارون ستون :

- لديّ هدية تجلب الحظ ؛ جعران أسود. أسكن فى فندق قريب من هنا ، بودى لو أعطيتك إياه .

- يعجبنى هذا الحفل .

عندما حاولت أن أقدم قطعة من الحلوى الممزوجة بالبطارخ السوداء لموريل وأنا أقترب منها عمدًا قالت كأنها تختزن العبارة لتلفحنى بها :

- ما أكثر من تعرفهم فى المدينة !

نطقت العبارة دون أن تحدد هوية من أعرف بالضبط، مذكر أم مؤنث، وقررت أن تنسحب من الحفل رغم أن وقتًا طويلاً أمامه كى ينتهى ، فقد صنع الطلاب مجموعات منهم وجلسوا فوق درجات السلم الطويلة يتبادلون الأنخاب والثرثرة . لم تنجح موريل فى التأقلم مع أحد هنا، رغم أن بعض زميلاتها وقفن معها لبضع دقائق ، لكن ما لبثت زينب أن أحاطت صموائيل ولينا ، وراح الثلاثة يصنعون مثلثًا منفصلاً عن بقية الحاضرين . بينما وجدت نفسى محاطًا بفتيات من بولندا والنرويج ، والعازف البيروفى ماركو، ومارتينا الروسية وفتيات أخريات من الصعب حصر أسمائهن، بدأنا نتحدث عن الثقافات المشتركة فيما بيننا، بينما بدت موريل جالسة فى أطراف الحديقة وحدها لا ترفع نظرها عن مكانى رغم المسافة التى تفصلنا ، بدت كأنها تعلن شيئًا بعينيها اللتين لم تعرفا انحرافًا عن مكانى فقررت أن أبادلها نفس النظرات :" اسمعى . أنا هنا. أرغب فى أن تتكون بيننا أعراس بيضاء. حتى لو حولنا القمطر إلى فراش يطردوننا بعد أن يكتشفوا ما بيننا ".

وقفتْ ، وتأهبت للذهاب، لكنها مالبثت أن عادت إلى مكانها ، تؤكد أن نظراتنا التى تخترق كل هذه المسافة التى تفصلنا هى الوسيلة الوحيدة والممكنة من أجل إعلان شىء ما يجب أن يظل مختفيًا تحت رماد شديد الالتهاب فيما بيننا .

فى هذه اللحظة فقط تمنيت ألا تأتى مارينا من بلادها، فيبدو أننى وجدت البديل .

البديل .

هي بالتأكيد لم تخطف كافة أنوثة العالم لنفسها مثلما فعلت مارينا ، فموريل أنثى من نوع يختلف، وما أرغبه فيها ليس من نوع الأعراس البيضاء الذى أضاع كل مابين التلميذة والأستاذ .

وددت أن أخبرها صباح اليوم التالى عما حدث بعد أن غادرت المقعد فى نهاية الحديقة بعيدًا عن الحفل، وأن أحدثها عن الشاب المصرى الذى التقيته فى نهاية الحفل وطلبت منه منه مشروبًا إضافيًّا باعتباره تابعًا للشركة التى ورّدت أغذية الحفل ، فأخذنى إلى دروب المدينة بسيارته وحكى لى قصص حب مختلفة عن معبوده عبد الناصر ، وعن سبب هروبه إلى هنا منذ سنوات، وعن الأفضلية الثانية التى يعانى منهاالمسيحيون فى الوطن، وأيضًا فى الغربة .

قالت موريل موجهة كلامها لكل طلابها :

- سنذهب لمشاهدة فيلم "القدر الساحر لإميلى بولان" .

كنت أول من ردد :

- سوف أذهب ..

كررت الجملة مرتين . خمنت أنها توجه هذه الدعوة من أجلى للذهاب إلى سينما البحيرة الصيفية التى تعرض كل يوم فيلمًا جديدًا فى قاعة ضخمة مكشوفة. عرفت أن العرض سيتم بعد ثلاثة أيام ، واكتشفت أن حدود علاقتنا لم تتعد مبنى الجامعة، وأن موريل من النسه، إذا كنت أتعامل معها كمؤنث، اللائى يحتجن إلى فترات طويلة من أجل الولوج إلى مشاعرها ، والإيلاج فى أنوثتها، فترة تزيد بكثير عن تلك المسموح لى بالبقاء فيها فى المدينة، وأنه من الأفضل اختصار الحدوتة، حتى لا يعانى أحدنا من ألم عند الفراق، وحتى لا أصنع لها فجوة عاطفية لم تعان مثلها من قبل ، وهى الفتاة التى تبدو أقل تجربة من نسله عديدات حولى .

حانت ساعة الخروج إلى السينما ، ودارت العقارب تدفع ترددى أن أذهب ، لكن عاشقًا جبانًا راح يمنعنى من الحركة بحجج واهية لا أستطيع

أن أتقبلها بالمرة ، حتى زخات المطر التى انهمرت فى تلك اللحظات كأنها تنقذ ترددى بعدم الذهاب، قال لى العاشق الجبان الخائب الذى يسكن فى داخلى : "لماذا تذهب إلى بحيرة بعيدة وسط فتيات صغيرات ، ولماذا تود أن تصير عاشقًا لفتاة فى الرابعة والعشرين على أكثرتقدير، وهل تسعى من ذهابك إلى هناك أن تفرض عليها نوعًا ما من العواطف قد لا يكون كلاكما مستعدًا للدفاع عنها ، وأن تكتب لك يومًا بعد رحيلك ، مثلما فعلت ميليسا : "أنت شرقى"؟

رحت أنظر إلى السماء المكفهرة شاكرًا لها أنها أنقذتنى من حرج أمام شخصى القادم إلى هذه البلاد من أجل البحث عن امرأة، وجاءت الإجابة المليئة بعذر كاذب :

- هل كان هناك عرض تحت المطر؟

بدت الحورية مكفهرة الوجه ، حزينة ، كأنها تتعمد ألا تنظر إلى .قالت :

- معقول ، لم يأت أحد .

قلت وبى من الأسف بما قلم بتفكيك أوصال العاشق الخائب فى أعماقى :

- المطر .. توقعت أن يلغى العرض تحت المطر ، باعتبار أنها سينما مكشوفة .

قالت ببراءة الحورية المصدومة :

- لا .. عندما يسقط المطر يسدلون غطاء فى السقيفة .

تعللت أننى لم أكن أعرف . قال كرستيان مندهشًا :

- ذهبت أنا أيضًا .. لم أعثر على أحد .

هزت موريل رأسها بينما امتنعت الفتيات اللائى وعدن بالذهاب وحنثن الوعد مثلى :

- عدت إلى مسكنى عندما لم أجد أحدا منكم . لا أحب الذهاب إلى السينما وحدى .

كان أفضل عقاب أقدمه لنفسى هو ألا أتخيل كيف كانت أمور عديدة

فـي حيـاتي سـتتغير لـو جمعتـنا الصـالة وحدنا،ثم قررنا تناول العشاء بعد الخروج من الصالة ، كي نتناقش في براعة المخرج ، وأداء الممثلة التي فازت بجائـزة كـبرى فـي مهرجان كان عن الفيلم، وربما تطور الحوار لأعرف عنها المزيد .

- يا إلهي!

بـالأمس كـان أمـام حياتي فرصة نادرة للتغير ، والحصول على حورية ، يمكـن لكـل مـنا أن يصـير لبعض الوقت عمادًا راسخًا لقرينه ، في بعض الأحيـان نحاول الهروب من ندم يتتابنا على ما اقترفناه حتى لا تنضم أنفسنا إلى قائمـة الأعـداء والخصـوم الذيـن تكـثر قوائمهم من حولنا . فعلاً، في الكـثير مـن الأحيـان يصير المرء ألد خصوم ذاته، وهل هناك شخص يفقد فرصة الحصول المؤكد على حورية ، ويغفر ذلك لنفسه ؟

إلا إذا كان هذا الشخص هو أنا .

لـذا كـنت أول من يسرع إلى محطة القطار وأول من يقابلها عند شباك الـتذكر ، رغـم أن مونييـه جـاءني مـن مديـنة بعيـدة ، إنهـا مديـنة مزدحمة بالفـرص العديـدة ، ومـن المهـم التنسيق فيما بينها ، لمست يدي من أجل تحيتي ، مما جعلني أتصور أنها تقول :

"حضورك وحده يكفي" .

ودعت مونييه ، وتحركت معها بعد أن أتت لي بتذكرتي وقلت :

– لا أحد هناك . ترى هل سيتكرر يوم السينما ؟

بنظرتها الملائكية ، وشفافية الحورية ابتسمت كأنها تردد "ولا يهمك" .

وقـبل وصـول القطـار إلى المحطـة كـانوا هـناك ، جـاءت الروسـية نينا، وليليان، وأندريا من شيللي ، وإيفان ، الذي قال :

– كرستيان سوف يسبقنا لإعداد الشواء .

قالت موريـيل ونحن عند محطة الأتوبيس الذي سينقلنا إلى البحيرة حيث سيقام الشواء :

– ستأتي كاو في صحبة زوجها بالسيارة ، وستصحب معها إيتسكا .

عندما وصلنا إلى هذا الطرف من البحيرة كان كرستيان الذى اقترح الفكرة هو أول وأبرز من عمل على تنفيذها فقام بفك حاجياته ، وأشعل الفحم ، وصار علينا أن يضع كل منا ما أحضره معه للمشاركة فى هذه الأمسية ، بدت موريبل جادة أكثر هذه المرة وهى تأخذ الوعود فى أن نأتى جميعًا ، لكن الذين حضروا لم يزيدوا عن العشر شخصيات منهن فتاة شيلية من بلد أندريا .

ولأول مرة تكون على مقربة منى ، تتصرف بتلقائية وهى تتعلم من أندريا كيف يرقص سكان شيللى . لفت التلميذة يدها على كتف مدرستها وراحتا تلفان فى نعومة بادية ، متمنيًا أن أكون بين أناملها ، سألتنى :

- كيف يرقص النسله فى مصر؟

- لا أحب هز البطن ، لكنه رقص محبب فى بلادى .

اكتشفت أننا لا نرقص فى بلادنا رقصة شعبية ، وأن الناس تكتفى بالنظر إلى بطون الراقصات المهتزة ، وأن هذا الرقص قد صنع أمجادًا لنسله بأعينهن . لكن الناس لا تخرج إلى الشوارع لترقص مثلما يحدث فى بلاد كثيرة ، أما الكثير من الرقص فى الصالات الليلية فهو إما شرقى وإما مأخوذ عن مثيله فى الملاهى الليلية .

لفتنا دائرة واحدة ، وتخلصت من الشموع التى لفقتها حولى كى أبدو على سجيتى، وقررت مكافأة معدتى بشحنها بأكبر عدد من أنواع الطعام التى تمثل جنسيات من شاركو فى دائرة الآكلين الذين التفوا معًا ، قلت :

- سلطة لينا رائعة .

وردت إيتسكا :

- وتتبيل اللحم عند موريبل ممتاز .

رددت كاو وهى تقدم لنا شواء صعبًا التقاط اسمه، أشبه بقطعة الدهن العسير الذوبان :

- هذه أكلة يابانية نعشقها كثيرًا فى بلادنا .

قلت والسعادة تقفز من فمى :

- الأمم المتحدة كلها الآن فى بطنى .

ضحكت موريبل ، ودفعت لى بالمزيد من اللحم المشوى وقالت :

- كل .. أنت وحيد هنا.

مازحت مجددًا :

- الأكل أقرب شىء إلى معدة البشر فى كل العالم .

- إنها غريزة .

- الغريزة مؤنث .

- هه ؟

- لا .. لا شىء .

الوقت يمر ، وتتكشف حقيقة الحورية ، تغنى بصوت يأسرنا ، تبدو كأنها لم تمر من قبل بطريق العشاق ، لكننى أحس أنها تضع حاجزًا من أوراق السلوفان حول نفسها ، إنها فى العادة تسمعنا، وأقلنا كلامًا عن نفسها.قال كرستيان :

- سوف أصحبك فى سيارتى . أريدك فى شىء مهم .

وبكل لباقة اعتذرت المدرسة عن دعوة كرستيان، وفضلت العودة إلى المدينة فى صحبة تلميذاتها يرافقهن إيفان، الذى قال فى صباح اليوم التالى:

- وصلنا بيوتنا عند منتصف الليل .

قالت موريبل بعد أن دخلت القاعة حاملة فى يدها جرامفون قديم :

- اليوم ستتعلم الأشياء بطريقة مختلفة .

وراحت تشرح درسها على أجمل مايستمع تلميذ من طرازى . لقد أحضرت معها مجموعة من الأشرطة التى تمثل الغناء فى بلادها طوال خمسين عامًا ، وبدأت أصوات إيف مونتان ، وأديث بياف تتسرب إلى القاعة فتشجينى ، سألتنى :

- هل تسمع هذه الأغنيات ؟

قلت : أنا لا أسمع سوى هذه الأغنيات .

لم يكن فقط درسًا لسماع اللغة بأسلوب مختلف ، بل بدت كأنها تكمل

حفـل الشـواء على طريقتها بدون روائح أطعمة ولحوم متنوعة، ومشروبات قادمة من كل الكون، بل بدت اليوم كأنها تلهب عواطفى . وأنا أستمع إلى كـلود فرانسـوا "التـليفون يـبكى" ، وإلى جاك بيريل"لا تتركنى"، ثم إلى فـرانس جـال وزوجهـا الراحل ميشيل بيرجيه، وداليدا . بدت كأنها تحضر هـذا الشـريط مـن أجـلى، وتـرتدى هذه البلوزة التى تكشف كتفها كأنها تتقـلد بتـلميذاتها ، بـدت حورية عارية الكتفين تكشف أنها تتمتع بجمال خـاص ، لكـنها بـالفعل لا تشـد الأنظـار إليهـا إذا سارت فى الطريق إلى جوارك قياسًا إلى كل هؤلاء اللائى يدفعنك إلى النظر إليهن برغبة حقيقية، وإثارة .

إنهـا تضـع حـول عنقها السوار المصنوع من نفس أحجارالهرم الأكبر ، ورغـم ذلـك فأنا لم ألتفت إليها ولم تشدنى فيها أية تضاريس . حاولت أن أغمض عينىّ حين انحنت أرضًا لتلتقط قطعة الطباشير .

فـى المساء سألت كرستيان الذى جاء ليصحبنى إلى مقهى آخر ليتحدث معى عن نموذج المرأة التى يتمنى العثور عليه فى مدينتى :

– لماذا لا تقترن بواحدة مثل موريـيل ؟ إنها تناسبك .

رد : هى جميلة . ذات سحر خاص . لكنها ليست المرأة التى أبحث عنها .

قلت واثقًا فى كل حرف أنطقه :

– بالنسـبة لى .. فهـى الـنموذج الـذى أتـوق أن أبقـى طيلة عمرى إلى جواره .

ولم يفهم المعنى الذى وددت أن أوصله إليه .

الأنثى التاسعة

قلت لكاتيا وهى ترافقنى خارج مبنى الجامعة :

– أفضل هدية يمكن أن نختارها لموربيل هو أسطوانة غنائية.

ومشينا معًا لأول مرة . سرنا إلى المحل الذى يبيع أسطوانات ممغنطة ، كان علينا تدبير أحوالنا المالية لشراء هدية تناسب مدرستنا موربيل نقدمها إليها فى اليوم الختامى للجزء الأول من الدراسات الصيفية ، قصة متكررة ، كثيرًا ماكتبنا كلماتها فى الفصول والمدرجات ونحن نود التعبير عن مشاعرنا تجاه من علمونا شيئًا مفيدًا ، أو نطمع منهم أن يكونوا كرماء معنا وهم يقومون بتصحيح كراسات الامتحانات ، لكن موربيل شىء آخر ، قد تكون هناك كارول ، مع تلاميذها ، لكن :

– إنها شىء مختلف .

ردت كاتيا : بالفعل .. أنا معجبة بها ، كثيرًا .

إنها من أجمل معالم المدينة، ولم تكن الإقامة القصيرة هنا لتبدو كأننا نمر بشكل عابر فى الفردوس دون هذه الحورية ، قلت لنينا ، وكاو ، وإيفان ، وفرناندو ، وليليان ، وللا :

– غدًا اليوم الأخير لنا معًا ، ومع موربيل ، لنقم حفلاً صغيرًا من أجلها .

سألتنى كاتيا : – ماذا سنقدم لها ؟

– عندى هديتى الخاصة .. سوف أقدمها لها .

– وأنا .

– أقترح أن نقدم لها أسطوانة غنائية .. اسمعى هناك محل قريب من الجامعة . الأسطوانات فيه بسعر معقول . هل تذكرين ؟

بالفعل تذكرحصة الغنه ، التى علمتنا فيها كيف نستمع إلى اللغة من خلال الأغانى ، أو كيف نستمتع بالأغانى من خلال ما نعرفه من معانى الكلمات وما يصل إلينا من مفردات ، بدت موريل مغرمة بنجوم الطرب القدامى ، وأخذت تدافع عن كلوكلو الذى غنى "الوحدة" قبل أن يقتبسها منه كل من فرانك سيناترا ، والفيس بريسلى ، وأغمضت عينيها وهى تسمع مقطعًا من "لا تتركنى" لبيريل ، وقالت إن أهم ملحن أغنيات هو الراحل ميشيل بيرجيه .

وقفنا نتصفح الأسطوانات المعروضة خارج المحل ، واكتشفنا أنها لا تتضمن أغنية واحدة تناسب ذوق موريل . قلت :

- تعالى إلى الداخل . هناك مجموعة أخرى .

كنت قد أغريت كاتيا لشراء هدية لمدرستها مقابل مبلغ فى حدود إمكاناتها ، لكن دخولنا إلى المحل لانتقاء أسطوانة من المعروضات الأخرى يعنى أن كاتيا ستدفع أكثر . لفتنا الحيرة ونحن نتوه فى ذلك الكم الهائل من أغنيات رائعة أنشدتها داليدا ، وسيلفى فارتان ، وفرانس جال، ودومنيك سامسون ، وأصابنا التردد وأعيننا تتجول بسرعة، وبدقة بين أسطوانات لميشل ساردو، وجونى هاليداى ، وشارل أزنافور، وجاك بيريل ، وميشيل بيرجيه ، و..

- سوف نختار ميشيل بيرجيه .. امتدحته كثيرًا .

لكننا لم نتوقف عنده من المرة الأولى ، تلاعبت أصابعنا بين العديد من أرفف الأسطوانات كى أعود لأقول :

- ميشيل بيرجيه أفضل .. وأنسب سعرًا .

كان يجب أن أشاركها فى الثمن المرتفع للأسطوانة التى لفها الرجل :

- اكتبى لها كلمة .

وخرجنا من المحل وقد بدت المشاركة كأنها جمعتنا من أجل موريل ، قلت لها :

- لماذا لا نخرج للغداء ؟

- غدًا .. اليوم عندى موعد مع صديقى .

ولم يكـم أمـامى سـوى العـودة إلى الجامعـة لمقابلة كارول حسب الموعد الـذى ضـربته لى فـى الكافتريـا ، حيتـنى موريـيـل بابتسامة وهى إلى جوار زميلاتهـا تحتسـى معهن الشاى المثلج ، اختلس كل منا النظرات ، والحوار عن القضية الفلسطينية يجمعنا أنا وكارول وسلمى ، قمت من مكانى فجأة معـتذرًا لكـارول ، واقتربـت مـن مدرستى الصغيرة التى يبدو كأنها كانت تتوقع هذه الحركة المباغتة سألتها :

- هل تحبين ميشيل بيرجيه حقًا ؟

هزت رأسها باستغراب، لكن ذكاءها لم يجعلها تسأل "لماذا؟"، عدت إلى كارول لنستكمل الحوار قبل أن نخرج مجددًا من المبنى.

وفـى الثامـنة صباح اليوم التالى بدأ الدرس الأخير ، قالت حين التقت بنا للمرة الأولى قبل أسابيع :

- فى اليوم الأخير من الدروس ، يمكننا أن نتأكد مما تعلمناه حين يحكى لنا كل واحد عن شىء ما يهمه .

اقترحـت : لمـاذا لا نمـثل معـا مسـرحية يتخيل فيها كل منا أنه دمية فى صندوق ألعاب الأطفال، وأنه يخرج إلى الحياة لأول مرة .

لم ترق الفكرة لأحد ، لكنها قالت :

- أليست لديك فكرتك ؟

- لا أعتقد أنها لطيفة .

- دعنا نجربها .

بـدت قاعـة الـدرس فى شبه عرس صغير . العروس فيـه هى موريـيل ، لكننـا لم نعـلن لهـا مـا سـنقدمه لهـا بعـد قـليل ، بكل سذاجتها حملت لينا الروسية باقة الورد وهى تنظر إلى السبورة فأشرت إليها أن الوقت لم يحن ، قالت باتى من جزر الباهاما :

- سوف أقلد لكم القطار الذى تكسر .

وغادرت مكانها لتملأ القاعة بصخب غير مستحب ، رددت وأنا خائب

الرجل :

- ليس هذا ما أفكر فيه .

بدت باتى كأنها قد استعدت لفقرة أخرى ، فعادت إلى مكانها ، وأحضرت الجيتار ، وقالت :

- سوف أغنى لكم .

باتى تغنى ، يجب نشر مثل هذا الخبر فى أخبار المساء التى ينتظرها الناس لمعرفة أغرب ما يدور فى العالم ، إنها حالة فريدة ضمن من تقابلهم فى حياتك . قد تكون عيناك أقرب إلى عينيها بمسافة قريبة فلا تبادلك التحية ، فتجد لها العذر لأن الوكمان معلق دومًا فى أذنيها ، بينما تدندن ماتسمعه بصوت عال كأنها تخبر الناس بما فى داخل الجهاز من أغنيات، كما أنها تبدو كأنها تتأتئ وهى تتكلم لكنها واثقة فيما تقوله وتدفعك إلى الإعجاب بسلاسة عبارتها، وهى أكثر الحاضرين مقاطعة لموريل من أجل التعبير عن رأيها ، قالت :

- سوف أغنى لكم أغنية من جزيرتى .. الباهاما .

وجلست فوق مقعدها ، حاملة الجيتار، بعد أن نصبت أمامها الحامل الذى وضعت عليه كلمات الأغنية ، وبدت ببلوزتها المزركشة ، وشعرها الأقرب إلى "الزيرو" واحد سنتيمتر لا أكثر، ونظارتها البسيطة كأنها واحدة من أجيال الوود ستوك،وراحت تغنى بلغة الكريول التى تمزج بين عدة لغات ، من الصعب فهمها، أغلقت عينيها مرات عديدة كأنها تستمع إلى نفسها أكثر مما نفعل نحن . لقد جاءت من جزيرتها الواقعة فى المحيط الأطلنطى من أجل البحث عن فرصة عمل فى المدينة ، وكان عليها أن تدرس اللغة، تبدو حالة فريدة من بيننا ، ليست لها رفقة مثل الباقيات، وأيضًا مثل كاترينا التى أحجمت عن المشاركة معنا فى هذا الاحتفال الختامى فغابت دون أن تودعنا ، صفقت الأيدى بحرارة وامتلأت القاعة بالحماس بعد أن علت نبرات الغناء ، وتغيرت وجهة نظرنا فيها وهى تندمج فى الكلمات فتنقل لنا مشاعرها المتدفقة ، وتصدمك وأنت ترى كل

هذه الموهبة تتدفق كالشلال منها ، وهى تحنى رأسها للتحية كأنهـا اعتـادت مثل هذه المواقف كثيرًا ، قلت بصوت لم يسمعه أحد وسط التصفيق :

- حقًّا .. الفنون جنون . وأنا أحب المجانين .

جلسـت موريـيـل معـنا فـى مقـاعد التلاميذ، وراحت تعطى الدور إلى ليليان القادمة من أمريكا اللاتينية، والتى قالت :

- لن أتكلم . مارأيكم ؟

تـبدو الفـتاة الأصـغر سـنًّا فى المجموعة ، ولاتنافسها فى ذلك سوى نينا الروسـية، تعيـش فـى أوربـا مـع أسرتها التى تعمل بالفن ، والتى ترتبط بعلاقـات قريـبة مـع عدد كبير من المشاهير،منهم المطرب جوج برناسوس ، الـذى كـان يـأتى إلى بيـتهم للسـهر، وقفـت فى طفولة بادية تعقد يديها خـلف ظهـرها ثـم بدأت تلف يديها المعقودتين إلى أسفل قدميها وراحت تـلفهما معًـا ، فاسـتدارا كأنهمـا قطعـة من "الأستك" يلتف ويدور وبدا ذراعاهـا كأنهمـا ليسـتا مصـنوعتين مـن عظـام ، بـل مـن مادة مرنة سهلة التشـكيل ، ثم لفت اليدين المعقودتين وسط دهشة بالغة ، وكررت المحاولة مرة ثانية وسط التصفيق الحاد ، وأنا أقول :

- رائع .. نحن فى سيرك حقيقى .

وأعـادت الكـرة مجددًا بـناء عـلى طـلب الجمـاهير . وقامت "لاى"من مكانهـا تحـاول تقـليدها ، فأضـحكتنا على المهارة المخفقة على حين انحنت ليليان كمن اعتاد مواجهة الجماهير، وعادت إلى مكانها .

التفت إليها قائلاً : رائعة .. ستكونين مشهورة .

ردت بتواضع شديد :

- سوف أعمل مصممة أزياء .. إنه طموحى المأمول .

وجـاء الـدور عـلى لينا ، التى بدت كأنها فقدت حبيبها صموائيل قبل الأوان ، بعـد أن غـادر عـائدًا إلى بـلاده بـالأمس ، وقفـت أمـام السـبورة ببسـاطتها المتـناهية ، وجمالهـا الهـادئ الجـذاب ، وراحـت تشـرح لـنا كـيف يصنعون السلطة فى بلادها، فالناس تعشق الخضـروات والمطبـخ ، فالبيت

هو المكان المفضل فى بلاد الليل الطويل ، يلتهم أغلب أعمار البشر ، وأضواء البيوت هى الحياة البديلة ، من أجل الشعور بالانتعاش .

بدت رائعة في بساطتها، وكنت سعيدًا لارتباطها بحبيبها الشاب، رغم أنها الأنثى الأولى التى التقيتها في المدينة . وأنها أول من خرجت معها، وروادتنى فى خواطرى الأولى أن يصير لها مكان فى القلب ، لكننى لم أفرض عليها ، تجلس إلى جوارى ، فى المكان الذى احتلته كاترين ، فجلست فى قمطر خلفى وكان من حظ صموائيل أن يكون إلى جوارها فنجح فيما فشلت فيه مع الفتاة الأوكرانية .

سألتى باستغراب فى الشواء . كأن بيننا شيئًا ما :

- أنت متزوج. أليس كذلك ؟

صفقنا للطبق الشهى الذى شرحت لنا تفاصيل إعداده من كتاب الطهى السويدى، أشرت إلى نينا أن تبدأ بتقديم هديتها قبل أن يحين دورها لتقديم فقرتها ، فأخرجت باقة الورد المغلفة بالسلوفان واقتربت من المدرسة وهى تبتسم ببراءة ما قبل الطفولة، ثم منحتها الباقة وقبلة ، ووقفت تقول :

- يومًا ما أتمنى أن أصير طبيبة ، من أجل أن أعالج جرحى بلادى فى أفغانستان ، لقد جندوا الصبية للذهاب إلى هناك ، وعادوا موتى .

وسكتت كى تبدأ فى إلقاء أغنية شهيرة بلغتها الروسية ، باسم "أفغانستان" ، عن ذلك الصبى الصغير الذى لم يعرف فى حياته سوى اللعب ، والانطلاق وراء طيور الحقل ، ومشاكسة عواجيز القرية الذين كم سخطوا منه ، وكم أضحكهم على خفة ظله، ثم استدعوه للتجنيد، لم يكن يسمع شيئًا عما يسميه الآخرون حربًا، ولم يكن سنه يسمح له أن يحمل بندقية .وكانت نقاط الدم الوحيلة التى يعرفها هى لدواجنه التى تذبح منها أمه فى المناسبات السعيدة .

أخذوه مثل غيره ، وذهب إلى الجبال فى أفغانستان دون أن يعرف ماذا يفعل ، وجد الخوذة فوق رأسه ، والبندقية الكلاشينكوف بين أصابعه ،

وافتقد ألعابة الجميلة وسط الحقول ، ولم يألف الجبال التى يراها لأول مرة .

وعاد الجندى الصغير إلى قريته ملفوفًا بعلم بلاده المنهزمة ، وودفنوا جثمانه وسط بكاء أمه وسط الحقول، وتجمعت الطيور فوق المقبرة تنعق، كأنها تغنى أنشودة حزينةعلى الصبى الذى لن ينطلق مجددًا وراءها فيطير معها نحو الأفق .

يا إلهى ، هل يكمن كل هذا الحزن والشجن فى أعماق هذه الصغيرة الأكثر جمالاً بين طالبات الدراسة الصيفية ، والأصغر سنًّا ، والأشد بهاء ، وصاحبة الابتسامة المميزة ، والحاضرة دومًا .

بالتأكيد ، لم تكن قد ولدت بعد حين طرد المجاهدون جنود وطنها ، وحين عاد الجندى الصبى سيرجى إلى مقبرته وسط الحقول ، لكنها تقطر ألمًا وحزنًا. بدت الأمور معكوسة، وتذمرت ضد الحرب ، واكتشفت لأول مرة أن هناك أنثى شريرة فى اللغتين. إنها "الحرب" التى يضاجعها البشر بتلذذ وهم يدعون أنها كريهة، مثل من يضاجع عجوزًا شمطاء من أجل قضه وطره .

بدت الأيادى الحارة التصفيق كأنها تقطر دمًا حزنًا على الصبى الذى مات فى الحرب ، واختلطت الدماء بدموع لم نشأ أن نذرفها حتى لا نفسد بهجة الاحتفال بيومنا الأخير معًا ، قمت من مكانى ومددت هديتى إلى موريل ، هتفت وهى تفرد البلوزة المطبوعة بالحروف الهيروغليفية : بديع !

والتقطتها بسرعة من أصابعى لترتديها فوق بلوزتها ، وبدت أشبه بحوريات الفراعنة المرسومات فوق المعابد الكبرى ، ثم اقتربت بوجهها من جبينى ، وطبعت واحدة من أخلد القبلات التى لا تعرف الفناء، تدفعنى للندم أننى لم أجلب لها كل هدايا الفراعين فى بلادى ، ومتمنيًا أن أستطيع إزاحة الهرم من أجل إحضاره لها كى أحصل على أكبر قدر من الشكر على طريقتها ، قالت :

– حدثنا عن بلدك .. نحن نعرف عنه الكثير، لكننا نريد أن تتكلم عنه .

قلت وأنا أحس بمن ورطوه فى شىء ما ، هل أتكلم عن بلادى التاريخ،

أم الحاضر ، وقررت أن أفعل مثلهم :

- ليس صوتى جميلاً ، لكننى أحب الغناء مهما كانت اللغة .

ورحت أدندن : أهواك ، واتمنى لو أنساك

وانسى روحى وياك

وان ضاعت تبقى فداك

لو تنسانى

وانساك ، واتارينى بانسى جفاك

واشتاق لعذابى معاك

والقى دموعى فاكراك

أرجع تانى

تمنيت لو أستطيع أن ألملم لها كل أغنيات العالم العاطفية فى عمر البشر، وأن أدندنها بصوت أجش بدا لها مقبولاً وهى تصفق مع الباقيات :

- أوه .. ساحر .

وجه دورأندريا ، التى انضمت إلينا فى اليوم الثالث للفصل الدراسى، والتى وقفت وقالت :

- هل تعرفون خريطة مايا ؟

بدأت تتحدث عن السحر والقدر فى وطن يؤمن بالأساطير القديمة فى بلاد عريقة القدم وصاحبة حضارات قديمة ، تبدو أقلهن جمالاً فى عينى رغم أن العينين يمكنهما التقاط مساحة كريمة من صدرها عندما تنحنىأمامك ، ونفس المساحة المباحة من ساقيها التى تترك لهما العنان خلف فتحتيها ، ورغم بشرتها الخلاسية التى تفتن البعض ، وشعرها الطويل ، لكن صوتها الأجش ونظارتها المذكر ، لا تشدك إليها خاصة حينما يحيط بها فتيات من طراز لينا ، ولاى . وكاترينا ، وكاتى . ونينا .

راحت تتحدث أن هناك خريطة تركها الأقدمون يمكن من خلال تاريخ ميلادك أن تصف لك شخصك الغامض ، وأن تساعد فى قراءة طالعك ، قالت :

- اكتبوا تواريخ الميلاد وسوف أبلغكم بما تقوله.

سألت كاو : الآن ؟

ردت أندريا : إن الأمر يحتاج بضعة أيام.

اقترحت موريبل :

- حسنًا ، سوف نعاود اللقاء جميعًا عند منتصف نهار الثلاثاء المقبل ، في حديقة الجامعة .

وقبل أن نصفق لها كانت أندريا قد التقطت الورقة التى دون بها كل منا تاريخ ميلاده الحقيقى،بينما تأهبت كاتيا لتقديم الأسطوانة إلى المدرسة قبل أن تقف أمام السبورة للتكلم عن بلادها ، بلاد البللور النقى ، قالت إنها تحب الناس فى بلادها ، إنهم شعب لم يعرف الحرب ، ويعيش فى سكينة ، ويعشق الأغنيات ، بدت مرتبكة الكلمات ، خجولة تمامًا لدرجة لم يحس بها أحد وهى تختم كلمتها ، ومع ذلك صفقوا لها بنفس الحرارة وهى تمد الهدية إلى موريبل التى انتزعت الغلاف كى تهتف :

- آه .. ميشيل بيرجيه .. ما أروعه !

بدا وهى تنظر إلىّ أنها تعرف أن كاتيا شاركتنى فى هذا الاختيار، منحت قبلتها هذه المرة إلى الفتاة التى عادت إلى مكانها سعيدة كى تعطى الفرصة لكاو للتحدث عن تنسيق الحدائق فى اليابان من خلال الكتاب الذى استعانت به ، كتاب أخضر يعكس جنون الناس فى وطنها بتنسيق الحدائق بكافة الأشكال الغربية .بدت كأنها قد تجاوزت مشكلة الفيزا التى حاول زوجها الحصول عليها من أجل اللحاق بها فى أوربا ولم تعد تتكلم عنها، ليست واحدة من الجميلات ضمن هذه المجموعة، لكنها الوحيدة المقترنة بالمهندس الشاب الذى يعمل فى النوويات فى طوكيو، تنسكب منها جاذبية خاصة وهى تتكلم بصوت خفيض للغاية، فيدفع من يسمعها أذنيه إلى الأمام حتى يدرك أن الهمس عند اليابانيين هو فى حد ذاته ضوضاء صاخبة .

مدت كاو الكتاب إلى موريبل وقالت :

- أهدى بعضًا من خضرة بلادى إلى موريل .
وقالت موريل بكل حماس :
- أتمنى أن أرى الشمس تشرق على العالم أولاً عندما أزور اليابان .
وصفقنا بحرارة لكاو. وعندما حان دور لاى استعددت لسماع نبرة غريبة مليئة بالحمية والحروف المتقطعة كأنها قطعت سباق العشرة آلاف ميل لتوها . قالت :
- عندما سأعود لبلادى سأحدث الناس عنكم . سأقول إننى شاهدت بشرًا من كافة الألوان والأديان ، كانوا كلهم هناك تجمعهم سعادة واحدة ، تنزهوا معًا ، ونسوا لغاتهم التى يتكلمونها من أجل التوحد مع فتاة طيبة اسمها موريل .
واحتجت موريل وقالت :
- لا تتكلموا عنى ، فقط حدثونا عن أوطانكم ..غن لنا أغنية من الوطن
وراحت "لاى" تستجمع أغنية صينية جميلة ، خرجت كلماتها منمقة على غير عادتها فى الكلام . والغريب أننا لم نصفق بل طالبناها أن تكمل ماتنشده ، فارتفع صوتها يخترق جدران الباب ، وبدا كأنه يتوغل فى القاعات الأخرى ؛ أن تعالوا جميعا فالمدرسة موريل تفعل شيئًا مدهشًا .
يا إلهى ، لقد استحضر الجميع أوطانه إلى هذه الغرفة بطريقته الخاصة دون أن يقحم أى منهم السياسة والتاريخ أو العقيدة ، وبدوا فى ذلك متقاربين للغاية .
قالت موريل قبل أن نغادر القاعة ، دون كلمة وداع واحدة :
- أتمنى ألا تنسوا اللغة الفرنسية أينما تذهبون .
وبعد قليل كنت خارج القاعة ، تواعدنا جميعًا على اللقاء فى ظهيرة الثلاثاء من أجل " نتيجة المايا " .
ولم أذهب ، رغم أننى أحفظ الموعد جيدًا .
لا أعرف لماذا .
ترى لماذا لا أعرف السبب ؟

الأنثى العاشرة

لا .. بل أعرف

من الصعب على شخص مهموم بالحنين أن يرجع إلى مكان كان محببًا إليه بعد أن صار وكرًا للذكريات ، يحفه الشعور بالغربة، بعد أن كان هذا المكان، يومًا ما، جزءًا لا ينفصل عنه، يبدو قطعة من وجوده الحقيقى .

لذا ، لم أذهب إلى لقاء من كانوا زملاء الدراسة ، يوم الثلاثاء ، ورحت أتآلف مع المدينة الغريبة ، التى تزيدنى إحساسًا بالوحشة. التهمتنى المطاعم والحوانيت وشاطئ البحيرة ، وهؤلاء الذين يطمعون فى أن يزيد المقتنعون بهم واحدًا . وخفت من العودة فنتبادل كلمات الوداع المثيرة للشجن ووعودًا بالعودة ، والمكاتبة ، والاتصال بالبريد الإلكترونى .

الوداع يشعل الفؤاد ، ويخنق الرغبة فى البكاء .

لكن ، سامح الله كوب الشاى الساخن الذى اشتقت إليه فى الكافيتريا التى شهدتنا معًا عندما كنا هناك .

دفعتنى حاجتى إلى احتساء كوب شاى ، فى مدينة ممطرة باردة صيفًا ، إلى العودة إلى كافتيريا الجامعة ، المقعد الذى جلست عليه مورييل يومًا خالٍ ، ربما تأتى بعد أن يدق الجرس معلنًا انتهاء الدرس الثانى فى المجموعة الثانية للدراسات الصيفية ، تبدو موريبل الآن أشبه بالزوجة التى انفصلت عن زوجها ، منشغلة بأسرة جديدة ، هى الآن بين تلاميذ جدد ، يجب أن نغبطهم لأنهم سيمتلكون موريبل لعدة أسابيع ، سوف تقترح عليهم الذهاب إلى سينما البحيرة لرؤية فيلم جديد . سيأتون حتمًا ، كما سيشجعها أحدهم أن يذهب التلاميذ معًا للحفل الموسيقى بمناسبة العيد القومى للمدينة الذى سيبدأ بعد أيام .

كما سوف يقترح طالب آخر الذهاب معًا إلى نفس حفل الشواء.

لابـد لمثل هذه التخيلات أن يرعبنى الإحساس بأنها انصرمت ، بعد أن كانت كالحفنة فى قبضة اليد ، حتى وإن كان تسرب الزمن من سنن الحياة ، فالرعب أيضًا من نفس السنن .

قـررت مغـادرة الكافيتريـا بعـد أن تدفـأت أوصـالى بالشـاى الساخن، وأسـرعت إلى بوابـة الجامعـة ، ودلفـت مـنها هاربًا محاولاً الاختفاء حتى لا يرانى أحد من النازلين من الدور العلوى . ورغم ذلك لمحتنى .

بسبست لى ، وأنا أهرول نحو الباب ، وراحت تنادينى .

- أهلاً .. كاتيا .

- أيـن أنـت ؟ ألم تعدنـى بالحضور بحثًا عنى . لماذا لم تأت يوم الثلاثاء؟ موريل سألت عنك .

- كان .. كنت . كان هناك ..

- تعال أدعوك على شيء ساخن .

جذبتـنى مـن يـدى إلى الكافـتيريا من أجل ترسيخ الشعوربالدفء الذى افـتقدته، لم أكـن فى حاجة إلى مشروب ساخن ، فالطاقة التى منحتها لى الفتاة بـدت أشـد سخونة من الآلة الكهربية التى تسخن المياه فى الكافيتريا لصنع المشروبات الساخنة، من أجل الراغبين فى تدفئة أمعائهم الباردة. قلت :

- افتقدتك . جئت طمعًا أن أراك .

ابتسمت ببراءة تميزها :

- على فكرة .."نتيجة مايا " كانت مثيرة للدهشة . كلها صحيحة .

هنا دخلت "لاى" بقامتهاالفارعة والشورت الفاتن ، تتبعتها "أندريا"، ثم "فرناندو"، ومن بعدهم زينب ، قلت :

- كان بودى الحضور . هل يمكننى معرفة ما قالته النتيجة ؟

ردت "أندريا" بعد أن بادلتنى التحية :

- للأسف.. النتائج ليست معى الآن. يمكننى إحضارها لك فىيوم آخر.

ردت "لاى" والجميع لا يزال ملتفًا حولى :

- إنها أكثر صدقًا من الأبراج الصينية .

انسحبوا بهدوء شديد، وتركونى أشارك كاتيا الشاى الساخن ، أخرجت لها تفاحة من حقيبتى ، هزت رأسها ببساطة وهى تشكرنى :

- لست جوعانة .

- هل لنا أن نتقابل .. بعد انتهاء الدرس ؟

بدت كأنها تنتظر أن أتخذ هذه الخطوة :

- حسنًا .. انتظرنى فى حديقة الجامعة .

وكان علىّ أن أنتظر ساعة كاملة فى الحديقة حتى يقرع الجرس، لم تكن هناك أية نية أن تكون المرأة التى جئت إلى المدينة من أجلها ، الآن ، صار فى الإمكان الخروج معًا ، وأن نكرر اللقاء .

بعض الناس يدخلون حياتنا دون أن يكون فى خططنا أن نفعل ذلك ، لكن" الجوار" له سحره المنشود .

جاءت " كاتيا" للجلوس إلى الصف الأول فى الفصل الذى لم يكن يضم سوى كاترين ، فاستطاعت ب- "جوارها" أن تفصل بالتدريج بين الفتاة الأوكرانية وبينى ، ولم أحاول بذل أية محاولة جديدة للتقرب إليها .

فصلت بيننا، كأنها قوات الأمم المتحدة التى تفصل بين قوات متشابكة، بعد محاولات متكررة فاشلة فى أن تكون كاترينا فتاتى المختارة فى المدينة، حاولت مرارًا أن أكون واحدًا منها، لكنها لم تقترب بالمرة من أى من الزملاء.

إلى أن انتقلت كاتيا من مكانها فى مقعد خلفى إلى الصف الأول الذى يضمنا، لا أعرف السبب ، هل ربما لأننى قمت بالهتاف باسمها حينما اقترحت "موريبيل"علينا التمثيل فى مسرحية بطلتها فتاة عاجزة تنتظرحضور شاب يحنو عليها، وهى جالسة فوق مقعدها الأبدى . تقمصت شخصية العاشق الذى يناشد الفتاة بأنه يحبها لشخصها مهما كان العجز الذى يؤلمها . رحت أنادى وشىء ما فى أعماقى يتحرك بصدق :

- كاتيا..معذرة، أنا لا أحبك بدافع الشفقة .بل لأنك صاحبة قلب كبير.

كنت كمن يبعث برسالة إلى كاترينا ، لكن من الواضح أن الرسالة

وصلت إلى كاتيا دون قصد . بدا لى أنه لا فارق كبيرًا فى النطق بالاسم وأننى أدلل مجاورتى دون أن أتنبه أن هناك فتاة تجلس فى المقاعد الخلفية تحمل نفس الاسم .

لعلى مخطئ فيما أفسر ، وأن "كاتيا" الفتاة لم تجد لنفسها مكانًا بين "صمواتيل" وحبيبته "لينا "، فقررت أن تترك لهما المكان إلى المقاعد الأولى فصارت فاصلاً حقيقيا بين كاترين وبينى . فى البداية لم أهتم بها ، حتى لا تتصور كاترين أننى أستغلها لإثارة غيرة ما ، لقد اخترت كاترين ، وعندما ألمحها ، وهى متكفئة على كراسة اللغة التى أمامها ، أشعر أنها كم تتمتع بجمال ملحوظ خاصة عندما ارتدت تلك الجونلة الشفافة ، التى كلما رفعتها كشفت أن لصاحبتها بشرة نادرة الجمال .

لكن كاتيا بدت كأنها تلعب دورًا مهمًّا للغاية ، وبعد علة أيلم بدأ الحوار الحقيقى :

– ما هى لغة بلادكم ؟

– السلوفانية .

– هل تشعرون بالندم لأن تشيكوسلوفاكيا انقسمت إلى دولتين؟

بلا مبالاة ملحوظة : لا .. أبدًا .. فى الأصل كنا بلدين منفصلين .

يبدو الناس هنا أقرب إلى الصناديق المغلقة ، دون أن تمتلك الطريقة المثلى للعثور على المفتاح الخاص لكل منهم ، فكاترين ترفض منذ البداية أن تفتح أيًّا من صفحاتها أمام الآخرين عدا اسمها والبلد الذى جاءت منه ، وربما أنها تعمل فى شركة لإنتاج الأفلام التسجيلية فى المدينة .

أكاد أجزم أننى لم أكن الوحيد الذى فشل فى العثور على مفتاحها، لم تكن تبدأ أحدًا الكلام مهما كان الأمر ، بدت أنها أمام مهمة محددة ، هى البقاء لأطول فترة فى المدينة ، انعكس هذا فى مهارتها فى حل مسائل القواعد ، كأنها اعتادت على محاولات الآخرين للتقرب منها، ورأت أن كل المحاولات يجب أن تحبط .

لكن صندوق"كاتيا" بدا أكثر بساطة . تأتى قبل موريل بقليل ، تبتسم

وهى تطلق التحية ثم تفتح حقيبتها كأنها فى فصل مدرسى، تخرج الكراسات والأوراق والقلم والممحاة، وتنتظر دخول المدرسة كى تصبح بالفعل تلميذة.

بدأت تشاركنى التدريبات الثنائية، فانقطعت الصلة بين "كاترين" وبينى، بدت أشبه بجزيرة معزولة، قبلت أن أدعو "كاتيا" لتناول كوب شاى فى الكافيتريا، سألتها:

- ألا تخرجين بعد الظهيرة؟

- بلى .. أخرج مع صديقى.

- هل لك صديق هنا؟

- نعم .. إنه من سلوفاكيا. أسكن معه فى بيت خاله.

- هل تحبينه؟

بدت مندهشة من السؤال السخيف. مثل هذه الأسئلة لا يجب طرحها على الآخرين، فهى أمورهم الخاصة، سرعان ما طرحت السؤال البديل:

- إلى متى ستظلين فى المدينة؟

ردت: حتى منتصف سبتمبر، ثم أعود إلى بلادى.

سألتها: أين تقضين عطلة نهاية الأسبوع؟

ردت بتلقائية، وهى ترتشف الجرعة الأخيرة من كوب الشاى الذى مسته برودة الجو:

- حمام السباحة.

اليوم، يتكرر نفس الشىء. احتسينا مشروبا ساخنًا. سوف تأتى بعد قرع الجرس، رأيتها تنتظرنى هناك. ضحكت وأنا أجرى نحوها، متذكرًا أيام العشق فى الصبا، والهرولة وراء البنات فى الحارات، فهأنذا أجرى نحوها حتى لا تراجع نفسها، وتذهب إلى صديقها كى يقضيا بقية النهار حول حمام السباحة.

سألت: أين نجلس؟

المكان الوحيد الأنسب لهذه العلاقة القصيرة هو الفندق القريب من

الجامعة . فهو ، فى النهاية ، البؤرة التى يطمح كل عاشق عابر إلى الذهاب إليها وهو يبحث عن علاقة لا تستغرق أكثر من الأيام القليلة الباقية للبقاء فى المدينة ، لكن الأمور لا تأتى بمثل هذه السرعة ، وجدت أخيرًا رفيقة فى المدينة التى بدت خالية تمامًا من الإناث ، رغم كثرتهن فى كل مكان ، والدليل هذا العدد منهن فى الجامعة ، ثم الفصل الدراسى .

قلت : لنتناول الغداء بعد ساعة .

قالت : عندى موعد مع صديقى فى الثانية ظهرًا .

تبدو كأنها تسد كل المنافذ أمام الذهاب، فى النهاية ، إلى الفندق ، وتحدد بعبارتها شكل العلاقة التى تربطنا، مجرد زميلين سابقين ، يمكنهما الجلوس فى حديقة المبنى يتكلمان فى موضوعات غير جذابة ، هى مأمونة العواقب فى أن لها صديق تنام معه عند خالتها ويخرجان معًا إلى المدينة ، يتناولان الطعام ويذهبان إلى حمام السباحة . قلت :

– ألا يسمح لك صديقك بالبقاء معى وقتًا إضافيًا ؟

بدت كأنها سمعت كلمتى بوضوح ، أكثر مما أسمع حروفها المدغمة. ملامح الدهشة ترتسم على وجهها ، وتبدو بعض التجاعيد التى يصنعها الغضب والدهشة على الوجوه البريئة الصغيرة ، وهى تنظر نحوى ممزوجة بدهشة ، سألت :

– ماذا قلت ؟

كررت ماقلت مرة أخرى بحروف واضحة حتى تفهم ما أقصد . سرعان ماقاطعتنى :

– أنا لا أقيم مع صديق ، بل مع صديقة .

وراحت" تؤنث " الكلمة كى يهتف كل أعماقى تحية لكل ما هو مفرد مؤنث فى كل لغات الدنيا ، خاصة فى المدينة . قلت دون أن أستطيع إخفاء فرحتى ، لاعنًا أذنى المريضة التى لم تميز بسهولة بين المذكر والمؤنث ، فالفرق كبير :

– عاشت تاء التأنيث .

سألت : هل تصورت أننى أقيم مع صديق؟
بنات كثيرات فى الفصل يقمن مع أصدقاء ، كما سمعت .

وكان يجب إعادة حساباتى، فالألمانية "ماتى"، والصينية "لاى" أكدتا مرارًا أنهما تعيشان مع صديق، لقد أفسدت أذنى رؤيتى للأشياء وأنا أنظر إلى المدينة كمذكر وأنثى، وأن النساء يعشن بحرية مع الذكور. قالت"كاتيا" :

– هى من قريتى ..كانت معى فى المدرسة، تدرس فى فصل آخر، وتعرف أننا معًا الآن .

يجب على المرء أن يسكب ، بعيدًا عن جسده ، كافة مشاعر القلق ، والغيرة ، والترقب وهو يرى الحقائق تتكشف أمامه ، فـ"كاتيا" ليس لها صديق فى المدينة ، وفى إمكاننا أن نصير كذلك طوال الأيام الباقية لكل منا فى المدينة ، دفعتنى كلماتها إلى الإسراع بإخراج آلة التصوير من الحقيبة . وأنا أردد :

– صورة للذكرى ؟

أخفت وجهها براحتيها ، وقالت ، وهى تمنعنى :

– لا .. من فضلك .

تشجعت ، وهى تقول :

– شكلى غير جميل فى الصور .

أسلمتنى وجهها البرىء ، بعد أن قلت :

– أراك جميلة ، أنا أستمتع بجمالك . دعينى أحتفظ بك فى الذاكرة .

بدت مشحونة بالدلال والتمنع ، شأن كل أنثى ، وهى تتحرك فى مكانها فوق العشب ، مثلما تفعل كل امرأة تريد أن تكتشف حدود أنوثتها فى عينى الرجل الذى يغازلها لأول مرة ، و ما تتمتع به من جمال وفتنة .

وتحركت الأرقام فى الفيلم وأنا أعطيها الكاميرا لأرى نفسى يومًا كما صورتنى، قلت مبتهجًا كأننى أشهد الحديقة ومبنى الجامعة الذى لم نبتعد عنه كثيرًا على علاقة جديدة تولد فى حياتى. واسم مؤنث يمكن إضافته إلى الذاكرة، حتى إذا ما تردد أمامنا يومًا ، أو سمعنا أحدًا يتحدث عن شخص

يحمل نفس الاسم نتذكر ما ربط بيننا وبين صاحبته فى المكان المقدس الذى احتوانا .

قلت :

- لماذا لا نذهب إلى حمام السباحة معًا ، أحتاج إلى ذلك معك ؟

كان ردها اقتراحًا وموعدًا :

- بل أريد الذهاب إلى السوق الذى حدثتنى عنه .

تمنحنى فرصة ذهبية لنكون عشاقًا جدًا ، ففندقى يطل مباشرة على الساحة التى يقام عندها السوق طوال يومى الأربعاء والسبت، قلت فرحًا :

- اذهبى الآن إلى صديقتك . غدًا سنكون معًا طيلة النهار .

وراحت مخيلتى تشكل لى كافة مايمكن أن نفعله يوم الأربعاء فى ميدان السوق، سوف أدعوها بالتأكيد إلى غرفتى بالفندق ، وسوف أختار حجتى لإقناعها بالصعود إلى هناك ، فكم رأيت جارتى الحسناء تتسلل إلى غرفتها وفى صحبتها عملاق ، فى ساعة مبكرة ، وكم غبطت هذا الذكر الفحل على حصيلته فى بداية النهار، الآن يمكن أن تتكرر قصة "لينا" و"صموائيل" ، سوف ألمس أناملها ، وأضغط على يديها ، وأكرر جملتى لها "أنت جميلة" من أجل استمالتها ، وأدفعها للقبول للصعود معى إلى الدور الرابع فى الغرفة المطلة على الميدان، سوف تشهد الغرفة ، والسوق من تحتنا ، شيئًا ما يتولد بين مؤنث ومذكر .

سوف يكون ذلك بداية رحلة عشق جديدة هى أهم المفردات الملموسة للمدينة، سيكون فى إمكانى معانقتها فى الطريق العام ، وأن ألف بيدى على خاصرتها ، أذوق شفتيها على البحيرة ، وفى الأتوبيس العام ، وربما نذهب بعد ذلك إلى حمام السباحة ، فتخلع مشد صدرها وتتمدد أمامى تحت أشعة الشمس ، تحاول أن تصبغ جسدها الأبيض باللون البرونزى ،ثم تأتى معى إلى خارج المدينة فى العطلة الصيفية ، تغرقنا حقول عباد الشمس بألوانها الذهبية ، أتمكن من مضاجعتها تحت الشجر، وأشعر بالضعف فأبلغها أننى هائم بها ، لاأستطيع مغادرة البلاد دون أن تكون معى ، ونبكى

عند محطة القطار ، أو فى المطار، تقسم أن تتصل بى، أو أن يكون اللقاء القادم قريبًا فى مطار القاهرة ، أو فى أقرب مطار من قريتها .

وجاءت فى موعدها ، قلت :

- هذا الترام يذهب إلى حلم السباحة .

قالت : أريد الذهاب إلى السوق .

واتخذنا وجهتنا نحو الميدان الكبير الذى افترشه الباعة من السابعة صباحًا ، أبلغتنى أن صديقتها كانت تود الحضور ، لكنها رفضت، وقررت أن نكون وحدنا . قلت بغباء :

- أليس لك أصدقاء هنا ؟

- ليس لى أصدقاء .

- أليس لك صديق تمارسين معه الحب ؟

أبدو كمن يفجر قنبلة جرثومية فوق الرصيف ، وأنا أتصرف بمنطق الشرقى الذى يضع فى أولويات علاقته بالنساء امتلاك جسد رفيقته، وقفت تنظر نحوى باستغراب ، قررت أن أفتح بابًا للحوار الجرىء من أجل اختصار الوقت ، قلت :

- أليس هناك صديق فى حياتك .. تمارسين معه الحب ؟

بكل تلقائية ردت :

- لا .. طبعًا !

- أبدًا ..؟

- أبدًا .

- ولا مرة ؟

- ولا مرة .

- غريب !

- أنا من الريف ، وأبى رجل متشدد ، وهذه الأشياء معيبة فى قريتنا.

- كم عمرك بالضبط ؟

- سبعة عشر عامًا .

- فقط ؟ تبدين أكبر سنًا .
- إنه عمر مناسب لتلميذة ستدخل الجامعة فى العلم القادم .
لمست أناملها برقة شديدة،وقد تسربت كافة رغبتى الحسية المتوقدة فى أن تكون ختام جولتنا الصعود إلى الفندق ، إلى خارج الآفاق الواسعة التى تحوطنا ونحن نكاد نصل أطراف السوق ، وسرعان مانشبت بدمائى مشاعر أبوية متدفقة أشعر بها تجاه فتاتى التى أحدثها هاتفيًا كل يوم مطمئنًا على الكلية التى اختارتها للدراسة حسب مجموعها الذى حصلت عليه هذا العلم ، قلت لها :
- ابنتى فى مثل عمرك أخبرتنى بالأمس أنها التحقت بكلية الهندسة . إنها حلوة مثلك . ستكون مهندسة ، وسأفخر أن أردد أننى أب لمهندسة .
تحسست كتف ابنتى فوق البلوفر الصوفى الأبيض الذى ترتديه، ولم أستطع أن أحدد رد فعلها وراء النظارة السوداء حيث تخفى عينيها ، قلت :
- هذا سوق كبير .. يمكنك أن تجدى فيه ما تشائين ، بأسعار رخيصة . اختارى لنفسك هدية بمناسبة التحاقك بالجامعة .
- لم ألتحق بالجامعة بعد .
- باعتبار ماسوف يحدث .
- شكرًا .. لا أريد هدايا .
- أنا الذى حدثتك عن الهدية، ولم تطلبيها ، تذكرينى العلم القادم، حين تدخلى الكلية التى ترغبين .
- لا أحب الهندسة ، أريد الفنون الجميلة .
- رائع ، سوف أفخر بك. اختارى من السوق هديتك .
- صدقنى .. لا أريد هدية .
وقفنا أمام بائع أكسسوارات، رحت أدفعها لاختيار مايعجبها ، سوف تصبح فنانة ، تستحق التهنئة ، بدت مترددة ، اختارت خاتمًا غرسته فى أصبعها ، منحت البائعة الألبانية ثمن خاتمين ، سألتنى "كاتيا" :
- لماذا إشتريت خاتمين ؟

- سأحتفظ بواحد لنفسى .

سرنا معًا فى دائرة السوق الكبيرة التى تضم كافة ما يتخيله المرء ، أشياء مستعملة ، وجديدة ، دعوتها لتناول شاى مثلج ، جلست ترتشفه من الشفاطة ، لمست يديها مرارًا ، حاولت استعادة الذكر المتوقد فى داخلى ، لكنه تسرب تمامًا من السوق والمدينة ، وبدا بعيدًا عن الفندق الذى يطل علينا مباشرة، ودفعت لها بآلة التصوير قائلاً :

- التقطى لى صورة أمام هذا البائع .

أمسكت بآلة التصوير ، وضغطت على الزر الذى أحدث فتحة فى الكاميرا ليلتقط صورة لرجل ارتدى بنطلونا قصيرًا (شورت) بنى اللون ، وقدغطى رأسه بقبعة الكوكا كولا الحمراء ، تكدست من خلفه مجموعة من سيارات النقل الصغيرة ، أخرج البائعون منها بضائعهم المتنوعة لعرضها على زبائن جاءوا إلى المدينة من أنحاء العالم ، منهم الأسود ، والأصفر والأسمر ، من كبار السن وصغاره ، يطرحون أمامهم البضائع من كتب ولوحات ، وإكسسوارات نسائية، وطوابع بريد، وثلاجات قديمة ، وأجهزة تسجيل ، ومقاعد ، ومكتبات ، ومنافض سجائر ، وشرائط فيديو ، ومجلات لنساء عاريات ، وطوابع بريد ، وملابس ، ونظارات ، وتحف فنية ، و..

قلت لها : الآن .. حان دورى لالتقاط صورة لك .

وجلست ابنتى فوق حاجز مصنوع من خشب الأشجار تضع نظارتها على عينيها ، وقد عقدت يديها فوق بعضهما ، ومن خلفها بدت الملاهى الصغيرة المليئة بالأراجيح الخشبية ، والصبية والبنات الذين يقاربونها فى العمر ، يتنافسون فى مرح من أجل الحصول على حقهم من اللهو والبهجة.

ابتسمت مثلهم .

واتسعت فتحة آلة التصوير لتثبت ابتسامة فتاة جميلة لا تزال محتفظة بعذريتها ، ووجدت لها أبًا جديدًا فى المدينة .

اكتشف للمرة الأولى أن "الابنة" : مفرد مؤنث .

القاهرة فى ٢٠٠١/١٢/١٥

للمؤلف

(أ) فى الرواية

١- لماذا (دار المطبوعات الجديدة ١٩٨١)
٢- أوديسانا (دار المطبوعات الجديدة ١٩٨٢)
٣- الثروة (المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣)
٤- البديل (هيئة الكتاب ١٩٨٧)
٥- زمن عبد الحليم حافظ (مجموعة النيل العربية ١٩٩٦)
٦- وقائع سنوات الصبا (مركز الحضارة ، حلب ١٩٩٥)
٧- أيام الشتاء لستون (هيئة الكتاب ١٩٩٨)
٨ أفعال الحب (سندباد ٢٠٠١)
٩- آخر أيام الإسكندرية (هيئة الكتاب ٢٠٠٢)
١٠- الحياة مفرد مؤنث (مركز الحضارة العربية ــ القاهرة ٢٠٠٣)

(ب) فى الترجمة :

١- آلهة الذباب (جولدغ) (دار الهلال / طبعتان ١٩٨٤ ، ١٩٩٥)
٢- شحاذون ومعتزون وقصبها (هيئة الكتاب ١٩٨٨)
٣- العاشق رم . دوباس) (هيئة الكتاب ١٩٩٠)
٤- منزل الموت الأكيد (قصبرى) (سعاد الصباح ١٩٩٢)
٥- انقسام الظهيرة (بول كلوديل) (المسرح العالمى ــ الكويت ١٩٩٥)
٦- العنف والسخرية (قصيرى) (دار الهلال ١٩٩٣)
٧- كسالى فى الوادى الخصيب (قصيرى) (١٩٩٧)
٨- اللاء خلاتى (أندريه جيير) (المصرية اللبنانية ١٩٩٨)

(ج) الموسوعات :

١- موسوعة الأقلام العربية (مع آخرين) (بيت المعرفة ١٩٩٤)
٢- موسوعة الممثل (مع آخر) (مجموعة النيل ١٩٩٩)

٣- موسوعة جائزة نوبل (مدبولى ١٩٩٦)
٤- موسوعة جائزة نوبل (المستقبل ٢٠٠١)
٥- موسوعة أدباء نهاية القرن ٢٠ (المصرية اللبنانية ٢٠٠١)
٦- هؤلاء كتبوا للأطفال فى مصر (المركز الفنى لثقافة الطفل ١٩٩٩)
٧- دليل الفيلم العربى فى القرن ٢٠ (مدبولى ٢٠٠٢)
٨- موسوعة كتاب الأطفال فى العالم العربى (جامعة الدول العربية ٢٠٠٢).

دراسات أدبية :

١- الخيال العلمى درب القرن العشرين (الدار العربية للكتاب ١٩٩٣)
٢- جوائز نوبل : أضواء وأسرار (دار المعارف - ١٩٩٤)
٣- الأدب العربى المكتوب بالفرنسية (هيئة الكتاب ١٩٩٥)
٤- الإبداع والمعرفة (المصرية اللبنانية ١٩٩٨)
٥- رواية التجسس والصراع العربى الإسرائيلى (نهضة مصر ١٩٩١)

دراسات سينمائية :

١- الاقتباس فى السينما المصرية (٥ طبعات ، أو مكتبة الأسرة ٢٠٠٢)
٢- الحب فى السينما المصرية (دار الأمين - ١٩٩٧)
٣- العنف فى السينما المصرية (دار الأمين - ١٩٩٧)
٤- العرب والسينما فى مصر (مكتبة الأسرة - ١٩٩٩)
٥- المرأة فى السينما المصرية (دارة الأمين - ١٩٩٧)
٦- الفيلم السياسى فى مصر (مكتبة الأسرة - ٢٠٠٠)
٧- صورة الأديان فى السينما (المركز القومى للسينما - ١٩٩٧)
٨- الغناء فى الفيلم المصرى (المركز القومى للسينما - ١٩٩٩)
٩- الكوميديا فى الفيلم المصرى (المركز القومى للسينما - ١٩٩٩)
١٠- السينما والإثارة (الدار الثقافية - ١٩٩٩)
١١- الفيلم التاريخى فى مصر (هيئة الكتاب - ٢٠٠٣)

والعديد من السلاسل كتب الأطفال عن المؤسسات التالية :

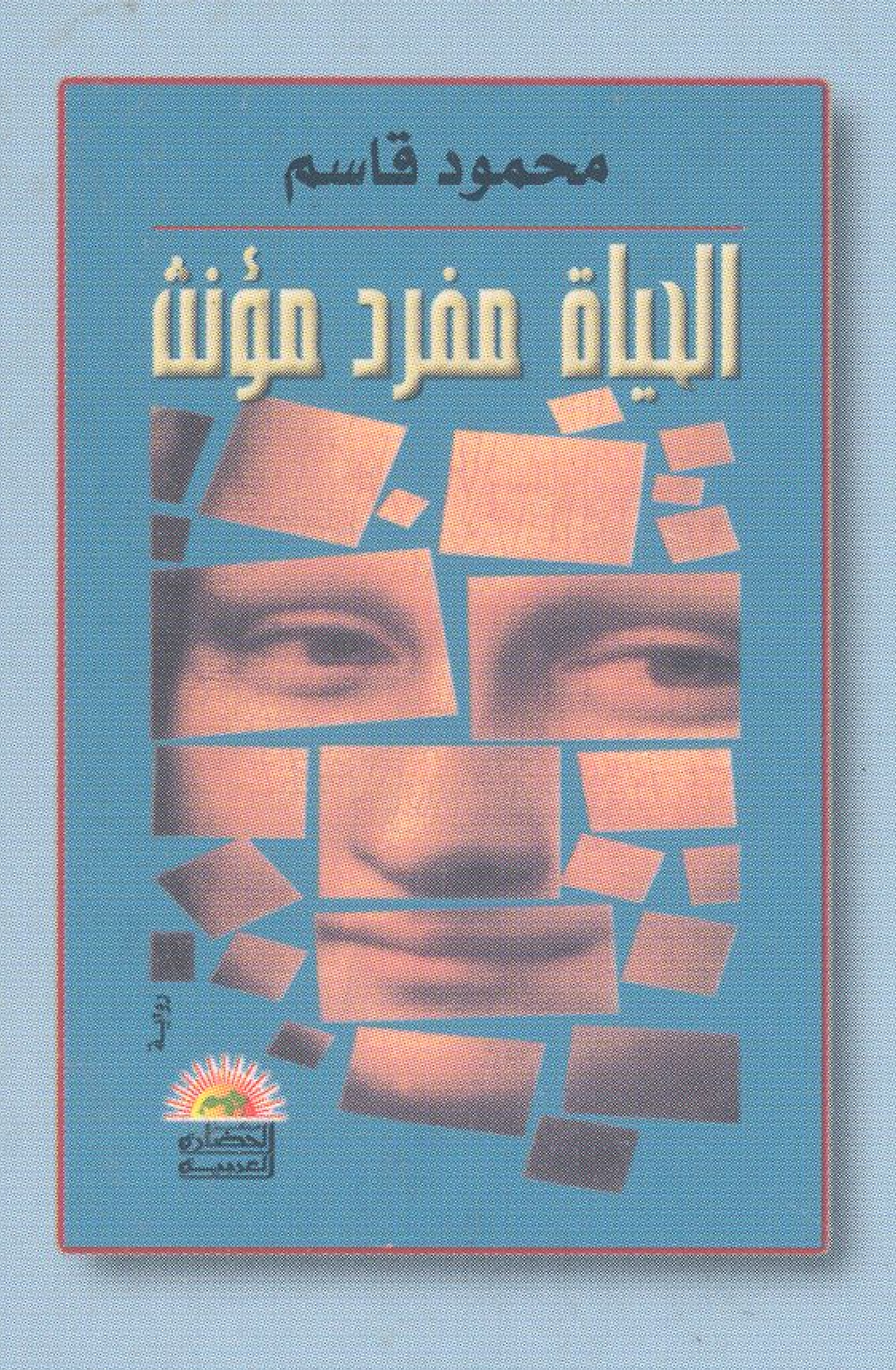
دار الشروق - نهضة مصر - دار المعارف - دار الهلال - مركز الكتاب - هيئة الكتاب

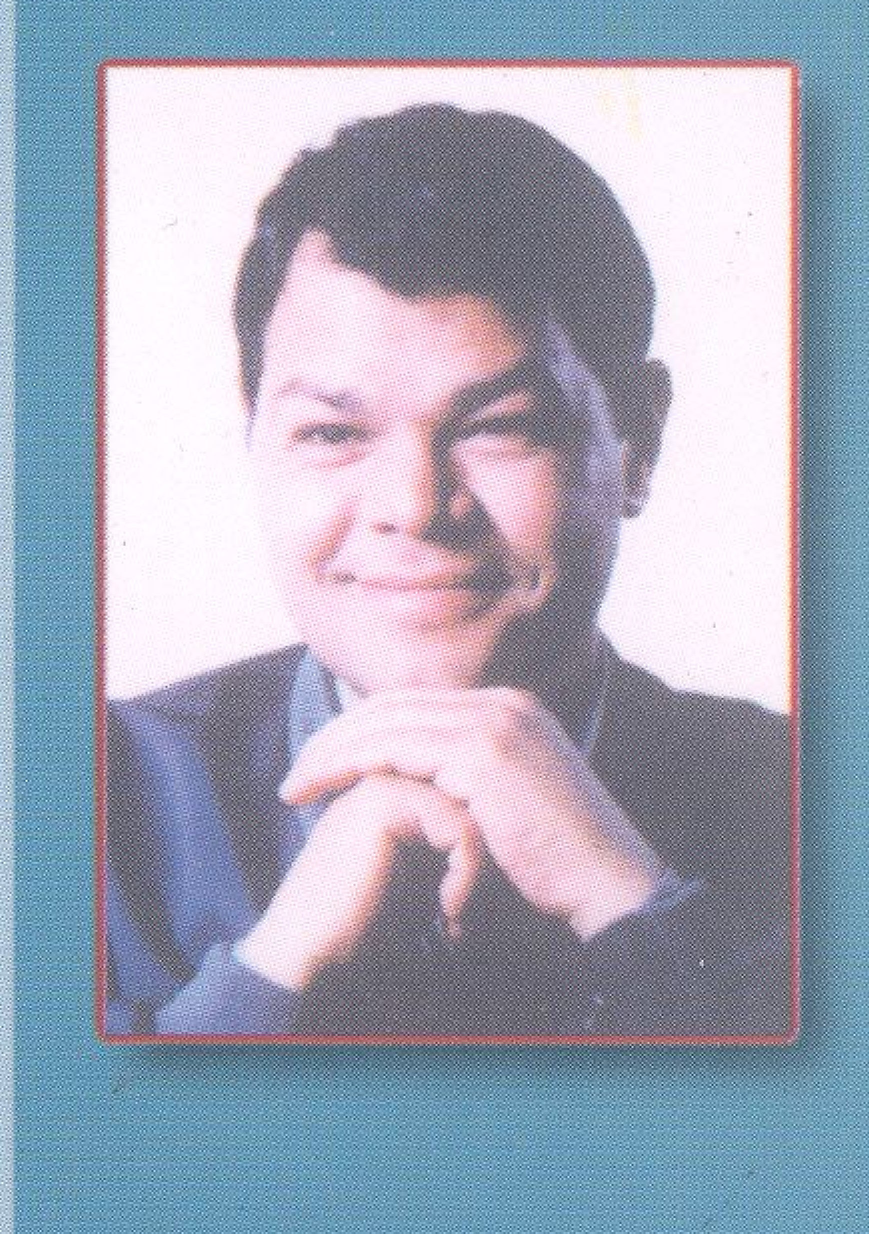
من قائمة الإصدارات الأدبية

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	المتعبون	جمعة محمد جمعة
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين	دموع إيزيس	حسني لبيب
الهاجس	أحمد بدران	بالمقلوب	د. حمدى حمودة
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
سريب	أحمد الفيتورى	الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
ظل باب	أحمد محمد حميدة	أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
وقائع غرق السفينة	إدريس علي	يومية هروب	خيرى عبد الجواد
واحد ضد الجميع	إدريس علي	مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
المبعدون	إدريس علي	العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
طريق النسر	إدوار الخراط	حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
صخور السماء	إدوار الخراط	حرب بلاد نعنم	خيري عبد الجواد
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط	الحدود	رأفت سليم
يقين العطش	إدوار الخراط	الطريق والعاصفة	رأفت سليم
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	في لهيب الشمس	رأفت سليم
متى تتزوجني !؟	أشرف خليل	اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
الهيش	أشرف العوضي	أناكندة (قصص قصيرة مترجمة عن الإسبانية)	ت : رزق أحمد رزق
حذاء السيد المنسي	أشرف العوضي	أنا ونورا وماعت	رفقي بدري
عندما تبيض الديوك	أمجد صابر	سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
لا أحد يحبك	أماني فهمي	شجرة الخلد	سعد القرش
همس العاشقين	أمين بكير	تائهون فى الحياة	سعدية البياتي
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	شهقة	سعيد بكر
ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب	حبيبي يا ناس	سليمان كابو
مأساة أسرة	أمين العزب	أرجوحة	سمير الفيل
أشياء خاصة جدا	أمينة العمادى	ظل الحجرة	سمير الفيل
الخيول الشاردة	بهي الدين عوض	قطار الساعة ١٢	السيد الشوربجي
قبل وبعد	توفيق عبد الرحمن	أيام هند	سيد الوكيل
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني	كف مريم	سعيد سالم
مطرية الغروب	جمال الغيطاني	سفر الموت	شاطبي يوسف ميخائيل
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي	الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الرقص على حافة الجرح	جمال فايز	أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز





عاد مرة أخرى إلى المدينة... بحثًا عن امرأة جديدة... مؤمنًا أن قصة حب جديدة لابد أن تمحو كافة ملامح قصص الحب القديمة...

لكنه رأى أنثاه المفقودة فى وجوه كل نساء المدينة، واكتشف أن كل ما بالمدينة كائنات مؤنثة، ليست النساء وحدهن، بل البحيرة والأشجار واللهفة، والمضاجعة، والبراءة، والصداقة
والسحابات، والسماء، والسياسة..

وربط نفسه بكل ما هو مؤنث فى ا

لكنه فجأة اكتشف ما هو أعمق

اكتشف أن الحياة نفسها: مفرد ..

